





لطيفة الزيات

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ١٠٠ ليرة ـ لبنان ٦٠٠٠ ليرة ـ الاردن ٢٤٠٠ فلس ـ الكويت ١٢٥٠ فلسا ـ السعودية ١٥ ريالا ـ تونس ٢ دينار ـ المغرب ٢٥ درهما ـ البحرين ٢٠٠ر١ دينار ـ قطر ١٢ ريالا ـ دبى / ابوظبى ١٢ درهما ـ سلطنة عمان ٢٠٠ر١ ريال ـ غزة / الضفة / القدس ٢ دولار ـ لندن ٥٠ر١ جك

العدد ٥٥٠

اكتوبر ١٩٩٤ ● جمادى الاولى ١٤١٥ هـ
No - 550 - oc - 1994

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولارا ـ أمريكا واوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٤٧٤١١٦٤

الادارة . القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

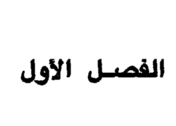
صاحب البيت

لطيفة الزيات

●

دار الهلال

الرسوم الداخلية
و
الغلاف للفنان :
جميل شفيق


الفصل الأول

لم تستطع رنات الجرس أن توقظ سامية ، ترددت فى سمعها متصلة كما تتردد كل ليلة منذ ليلة إلقاء القبض على زوجها محمد وتحولت ، كما تتحول كل ليلة إلى طرقات تتلاحق وهى غارقة فى النوم مكومة ، فخذاها تلامسان ذراعيها ، واستقام جسد سامية وأطلقت صرخة وهى تكتشف أن الطرقات ليست حلما هذه المرة . واندست فى ثوبها المنزلى ، والريح تعوى والسماء تمطر : ماذا يريدون هذه المرة ؟!

تطلب الأمر بعض الوقت لتدرك سامية أن الطارق هو رفيق صاحب محمد وليس رجال الشرطة كما توقعت ، وتساءلت ما الذى أتى برفيق فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ منذ يوم إلقاء القبض على زوجها لم تر له وجها ، كان من المفروض أن يعاودها فى غيبة محمد وحمدت الله لأنه لم يفعل ، فما الذى أتى به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ وخمنت سامية أن للأمر علاقة ما بمحمد ، وإن لم تقطع بماهية هذه العلاقة . هل تحقق الحلم أخيرا وتم الإفراج عن محمد ؟ وتراجعت تفسح الطريق لرفيق وهو يقول هامسا ، وفيم الهمس ؟!

ـ الخبط اللى تخبط يصحى الميت .

وندمت سامية لأنها أفسحت لرفيق الطريق : عدوانى كما العادة ومقتحم . وتعجبت وهو يتقدم بنفس الخطا المقتحمة كيف اختفت صورته من مخيلتها بمجرد إلقاء القبض على محمد ؟ اختفت وكأن لم تكن ، وهاهى تعود وكأن لم تختف قط ، يتمدد بها الهواء ويكاد يضيق بها . وواجهت سامية رفيق متحدية .

ـ حضرتك عايز إيه فى الساعة دى ؟!

ونبه رفيق سامية إلى ضرورة خفض صوتها . فيم الهمس ؟ وطرق السيجارة على سطح علبة سجائره المذهبة ، وترك سامية تنتظر لحظة متوترة وقال :

- محمد تحت .. فى العربيه .

واندفعت سامية تجاه الباب الخارجى وهى تنحى رفيق عن الطريق فى شراسة غريبة عليها واستوقفها رفيق فى منتصف الطريق يكتم صرخة احتجاج قبل أن تنطلق .

- أنا عارف من الأول إنك حاتخسرى كل حاجة ، ولولا محمد صمم ماكنتش أشركتك فى العملية دى خالص .

قال رفيق ولم تعد سامية فى حاجة لأن تسأل ، لِمَ يجلس محمد مختبئاً فى العربة ، ولِمَ لا يدخل بيته كما يدخل الناس بيوتهم .. لا يتعلم الإنسان بما فيه الكفاية ، كلما تعلمت اكتشفت أنها توهمت العلم . ترفض متعمدة أن تتعلم وبالبقية الباقية من البراءة تتشبث . فكرة الإفراج عن محمد التى تشبثت بها لوهلة رغم كل القرائن المضادة أبلغ دليل على أنها لا تتعلم . ويتعين عليها من الآن أن تتعلم وأن تتقبل الأشياء على ماهى عليه فى ذات الوقت وإلا أفسدت فعلا كل شىء . وقال رفيق :

- حضرى هدومك وهدوم محمد ، أقل حاجة ممكنة .

- على فين ؟

- بعدين تعرفى ، اتحركى ، مستنية إيه ؟ البوليس ؟

وأخرجت سامية حقيبة خفيفة ، وبدأت ترص فيها ملابسها وملابس محمد الضرورية ، وقال رفيق وهو يقف على عتبة باب حجرة النوم إن الخطة التى أعدها لتأمين هروب محمد خطة جهنمية ، وغيّب سؤال سامية عن طبيعة هذه الخطة ، وأكد أن من المهم أن تلتزم سامية بتعليماته حرفيا ، وذلك نزولا على مقتضيات الأمن ولأن محمد مسئول منه شخصيا وكذلك هى .

والتزمت سامية الصمت وهى تواصل ترتيب الحقيبة ، وتساءلت فى توجس إلى أين تؤدى هذه الرحلة ، وكيف تنتهى ؟ ليل التوتر ينتظرها

ونهاره ، لغته التوجس ، وحد السمع لخطى تبين ولا تبين ، وانتظار ليس بالضرورة عقيما كانتظارها للإفراج عن محمد ، الشرطة لن تنّون أو تكل إلا إذا أعادت إلقاء القبض على محمد ، وستكون المطاردة بالضرورة عنيفة فهل هى حمل كل هذا بعد سنة وما يزيد من العذاب ؟ وتأكد لسامية أن كل شىء يهون مع محمد ويتأتى ، محمد يبعثها حية قوية وقادرة ، وهى مع محمد على استعداد لاقتحام الجحيم ذاته .

وتعجل رفيق سامية وقد عادت من الحمام ترتدى ثوب الخروج . وأسقطت سامية معجون الأسنان والفرشاة فى الحقيبة .. ليلتها ضيعتها نظرة من محمد وأعادتها إلى الحياة نظرة ، صرخت حين انتزع الضابط محمد من حضنها فى الصالة ، صرخة ، مجرد صرخة ، وأنكرتها عينا محمد : لست المرأة التى أحببت ، قال عيناه وضاعت هى . وجففت دموعها ولحقت بمحمد على السلم تناوله الفرشاة ومعجون الأسنان وتسترد كيانها ، والظابط ذو الشارب الأصفر القصير يقول فى سخرية :

– إنت فاهمة جوزك رايح رحلة ولا إيه ؟

وهى تشيح عنه فى شموخ وكبرياء ، ومحمد يشد على يدها فى اعتزاز وأمها تقول صبيحة اليوم التالى : بقيت وحيدة يابنتى ، وتُخطىء ، كان محمد معها فى غيبته ، تبتسم ابتسامته المهذبة وهى تواجه عائلتها التى جاءت بقضها وقضيضها تستردها إلى البيت القديم ، وقالت أمها عودى وأشاحت بيدها فى نهائية – بدت العودة إلى البيت القديم خيانة لمحمد لا تدرى لِمَ ؟ وتنكر للطريق الطويل الذى خطته لتدخل الجامعة فى القاهرة ولتتزوج الزيجة التى اختارتها فى استقلال عن العائلة ، وعبر التليفون قالت أمها : عودى وكررت . وعلى مر الأيام اكتسب صوت أمها الفاعلية التى افتقدها بداية ، وهى تنتظر عبثا الإفراج عن محمد . واستقامت سامية بالحقيبة تقول :

– أنا مستعدة .

– إنت متأكدة ؟

قال رفيق فى سخرية خفيفة وهو يتناول الحقيبة ، وتلقت سامية سخريته

واجفة ، ماذا لو عرف ؟ لو عرف محمد أنها حنت أحيانا فى وحدتها الطويلة إلى البيت القديم ، وأمان ما بعده أمان ، إلى رتابة لا يخل بها شىء ولا يكاد يمسها العالم الخارجى ، إلى الصمت الرابض على البيت القديم لا يفصح ولا يريم ، إلى خطى لا يسمع وقعها أحد تمضى لائذة بالجدران وكأن لم تمضِ ، إلى جدتها بطرحتها البيضاء وثوبها الأبيض تجرى كفها على المسند المشروخ للمقعد المذهب على أمل أن يلتئم الشرخ ، والشرخ لا يلتئم ، إلى حى على الصلاة من المئذنة المطلة على البيت ، ودعاء جدتها فى سكون الفجر يتسع فى حلقات إلى أن يشمل المسلمين أجمعين ، إلى طقطقة أبى فروة فى المنقد وطقوس لا يعود للإنسان معها حاجة إلى أن يفكر أو يدبر أو ينتظر شيئا ؟ وتنهدت سامية ضيِّقة بنفسها .. ماكان الحنين إلى البيت القديم يعاودها لو كان محمد معها ، كانت وحيدة وضعيفة ومحمد الآن معها ، وقالت سامية لرفيق فى هدوء :

- يللا بينا .

والمطر يهطل غزيرا يلف الدنيا فى ضبابية شاملة .

الفصـل الثانى

ـ استعدى .

قال رفيق وهو يجلس إلى جانب سامية يدير محرك السيارة ، وشدت سامية غطاء الشعر المبلل حول رأسها ودارت مساحتا المطر جيئة وذهابا والسيارة تتقدم فى بطء ، ولا لقاء على الإطلاق .. طارت سامية إلى محمد حين لمحت السيارة السوداء تقف على مبعدة من البيت والريح تحملها وحنين العمر . ذوبت كيانها فى نداء هامس : محمد . ولم تتلق جوابا . أشار لها رفيق بالتزام الصمت ودفعها فى عجلة وفى إصرار إلى مقدمة السيارة ، وقال متقطع الأنفاس وهو يدير محرك السيارة :
ـ استعدى .

وتساءلت سامية إن كان الاستعداد يقتضى أن تعايش الصمت فلا تبوح بالشوق ؟ أن تعانى الفراق وزوجها على مقربة منها ؟ أن يمتنع عليها وعليه اللقاء ؟ وأيقنت أنها ستخفق قطعا مالم تعرف لِمَ تستعد . وأشار رفيق إلى سامية بالتزام الصمت قبل أن يتبلور سؤالها فى كلمات ، وانزلقت السيارة فى الظلمة بعيدا عن البيت . ونهى رفيق سامية وهى تستدير تتبين أين يختفى محمد وأصدر من جوفه أمرا لمحمد ألا يتحرك وأبطأت السيارة سرعتها كقطة تزحف وإلى جانب الرصيف استقرت . ورجح رفيق أن السيارة القادمة من بعيد نحوهم سيارة شرطة وإن لم يقطع . وبدت فكرة انتظار سيارة شرطة على الطريق العمومى لسامية فكرة جنونية ، وفكرة الهرب مستحيلة ولمست يد رفيق ترجوه هامسة أن ينعطف إلى طريق جانبى فلريما ، وانعكس ضوء مصباح من الشارع على وجه رفيق ولم تفعل . استبعدت نهائيا احتمال أن تكون السيارة القادمة سيارة شرطة ،

وتساءلت فى عجب عما ينتظره فى تلك اللحظة ، وكادت تسأله ولم تفعل ، لن يسمع وإن سمع لن يفهم ، فى لحظة النشوة لا يسمع الإنسان ولا يفهم ، فى اللحظة التى هى جماع كل اللحظات ينصب وجودنا بأكمله فى مجرى واحد ، ما مضى منه ، وماهو آت . أى جمال يواتينا لحظة النشوة وأى ذكاء ؟ أى معنى يكتسب وجودنا لحظة نعتلى القمة التى ليس بعدها قمة نرقب المدينة وهى ترقد تحت أقدامنا ، نعرفها وتعرفنا ننبض بها وتنبض بنا ؟ أى شيء رائع هذا الذى ينتظره رفيق ، وليونة كليونة القطط تسرى فى جسده ؟ لحظة الخطر ؟ مستحيل أن يواجه رفيق لحظة الخطر بمثل هذه النشوة ، وعينان من نور فى الاتجاه المعاكس يضويان ليعودا يضويان أشد لمعانا وتوهجا ، ورفيق يميل على عجلة القيادة إلى الأمام يهمس مختنقا وكأنما يستعجل لحظة اللقاء :

ـ البوليس .

وعقدت سامية ذراعيها حول صدرها فى استخفاف متعمد . مستحيل أن يستقبل رفيق لحظة الخطر بهذه النشوة ، رفيق يلهو بها كما يحلو له دائما أن يفعل ، وهو يلعب لعبة من ألعابه الصبيانية ليثبت تفوقه عليها أمام محمد . واتسع الوقت لسامية لتتبين أن العربة القادمة عربة شرطة فعلا، ولم يتسع لتتبين معنى ما يحدث . كرعد ينذر بالتحول إلى برق ولا يتحول ، تجمعت فى عقلها فكرة الخيانة ولم تكتمل . التقت نظرتها بنظرة رفيق وهى تتملص من ذراعه ، وأدركت مالم تدركه حين أمرها بالاستعداد . وودت أن تخبره بأنها استعدت ولا داعى أن يسحق بكفه مؤخرة عنقها ، وارتفع صوت أجش يقول :

ـ فوتك منهم يافريد دول حَبايب .

وجاوبه صوت فريد مرحا يفور بالضحك :

ـ خسارة والحبايب مش من اختصاصنا .

وعاد الصوت الأجش يقول فى انعدام صبر :

ـ يللا يافريد ـ لو فلت ابن الكلب ده البلد حتفلت من أيدينا .

وتقطع صوت فريد بالضحك وصاحب الصوت الأجش يحاول ولا يفلح في اقتلاعه من مكانه أمام السيارة السوداء .

ـ وشرفك ما أنا ماشى إلا لما أشوفها .

ودهمها نور البطارية دون أن تستعد ، وجدت رأسها تستقر على مسند المقعد ونور البطارية يحرق حدقتيها ، وماتت يد رفيق فى مجرى من العرق بعد أن تشبثت كيد غريق برقبتها . وتحتم عليها الآن أن تفعل شيئا يحرف النور عن محمد الذى يجلس مختبئا فى مؤخرة العربة . المهم أن تحرف النور عن كل ما عداها ، أن تغوى الغريب الضاحك فلا يرى سواها . وكيف يتأتى لمن قضى العمر يفر من نظرات الغرباء أن ينصب الشباك لنظرات الغرباء ؟ كيف يتأتى لمن يقشعر بدنه من الغواية أن يحترف الغواية ؟! وواتاها صوت داخلى يقول : ابتسمى وصرخ كيانها : لا أستطيع ، وانفصلت عنها مخلوقة تستدير شفتاها فى ابتسامة لزجة ، كيف استطاعت ؟ كيف جرأت ؟ من أين واتتها البديهة والقدرة على الفعل والتصرف فى هذه اللحظة ؟ هل اصطكت أسنانها وعيون أربعة تعريها ، تلطخها ، وجسد المخلوقة اللزجة يستدير فى إغراء ويتكور والألفاظ النابية ترجمها والابتسامة اللزجة تزداد لزوجة والضحكات الرخيصة تتباعد والخطوات تغيب فى جوف الليل ، وباب عربة الشرطة ينصفق ؟

وخطر لسامية وسيارة الشرطة تبتعد أن هذا ، بكل تفصيل من تفصيلاته ، حدث لها من قبل ، متى وأين ؟ لا تعرف ، ولكنها عاشته من قبل وكيانها ينفصل إلى إنسان ينزف ومسخ بلا جذور ولا دوافع يتحرك . وقال رفيق :

ـ برافو .. بقيت معلّمة .

وتساءلت سامية هل تحولت إلى المسخ الذى أرادوا لها أن تكونه ، مسخ بلا جذور ولا دوافع يتحرك ؟ تربية العمر أثمرت ، النفى عن العيون والقلوب ، العزلة والحرمان ، الضرب والتهديد ، الوعد والوعيد ،اللوم والعقاب ، الهمس فى الأركان : الويل لمن يختلف ! الطريق مع الرفاق مرسوم كما فى البيت القديم مرسوم ، الويل لمن ينفرد ! قماط المولود فى

عينين سوداوين وكفن الميت ونظرة تحيى ونظرة تميت ، وطرقة على الباب ، وصرخة يتحتم أن تموت ، الويل إن انطلقت ! وخلف البطارية هوة بلا قرار . الويل لمن إلى مسخ لا ينقلب ! ياأبى ياأمى ياجدتى ، يامئذنة تشرف على بيتنا القديم ، يارفاقى ، ياكل الناس افسحوا لى مكانا بينكم هاأنا على وشك أن أنتمى ، كما أردتمونى جئتكم مسخا بلا جذور ولا دوافع يتحرك .

ـ على فكرة يامحمد وشرفك لولا أنا ورا سامية لكنا الليلة بايتين فى التخشيبة .

قال رفيق ومساحات السيارات عادت تدور ، واستندت سامية إلى ظهر المقعد تقاوم رغبة فى إفراغ مافى جوفها ، وخطر ببالها أنها لم تعان الخوف لحظتها : قفزت من الإدراك إلى الدوار والقرف . وساد الصمت لحظة وسيارة تتبع سيارتهم وحين تجاوزتها ترك رفيق عجلة القيادة تلمع بعرقه وفرك يديه الواحدة بالأخرى :

ـ أهو كده الشغل ولا بلاش ، وكله كوم وخطتى كوم ، مش بشرفك يامحمد خطة عبقرية ، خطة جهنمية ؟!

وتساءلت سامية هل تتفتح أبواب جهنم ومحمد لا يرد ولا يصد ورفيق يلمس عجلة القيادة بطرف أصبعه وهو ينحرف إلى شارع جانبى يكاد يصطدم بالرصيف ولا يصطدم ، والضباب يحجب الرؤية والسيارة تفلت بمعجزة من الحوائط المسدودة ؟ وصاحت سامية بصوت مخنوق : محمد . وقد تجددت مخاوفها ألا تجد محمد فى العربة أصلا ، وعادت تتمتم لا تنتظر جوابا لندائها . محمد ، وقال رفيق :

ـ تقدر تكلمها يامحمد . مافيش عربيات جايه .

وقال محمد وقطرات المطر تتساقط على نوافذ العربة قطرة بعد قطرة :

ـ أهلا سامية ، منوّرة ياحبيبتى .

وبحركة لا إرادية أغلقت سامية عينيها وأبعدت ثوبها عن جسدها وكأنما تخشى أن يتلطخ .. ما هكذا تصورت اللقاء من خلال الآخر ، الغريب ! وعاد محمد يقول :



- قلبى معاك ياسامية ، المسائل حامية من اولها .

ولمعت الدموع فى عينى سامية وجسدها يرتخى وتحسست بيدها مسند المقعد ثم انقبضت يدها وهى تقاوم الرغبة فى أن تلتفت إلى الخلف .. أدركت أنه لابد لها أن تستأذن لترى زوجها وهو مختبىء فى قعر العربة وانطلق رفيق يدندن :

- ياعطارين دلونى الصبر أجيبه منين ؟

واجتاحت سامية رجفة ، هم الآن فى بيتها ، لابد أنهم كسروا الباب ، كل الأبواب ، وبعثروا الكتب والأوراق والملابس ، فى المطبخ تركت حللا قذرة وأطباقا فى حوض المطبخ وقشر البصل على المائدة ، فى الحمام تركت ملابسها الداخلية ، فى الدولاب .. لو عرفت لسترت ولكن الوقت فات ولم يعد هناك مجال للستر ، وهاهى تجلس هنا تندفع فى جوف الظلام إلى المجهول ، وهاهى تقف هناك عارية فى قبضة أيديهم الخشنة فى مضغة أفواههم البذيئة فى ومضة عيونهم الخبيثة . وقال رفيق :

- زمانهم شمعوا شقتكم بالشمع الأحمر .

وقر إدراك بنهاية الأشياء فى وعى سامية وقالت فى غضب مكبوت :

- إحنا رايحين على فين ؟

ولم تتلق سامية إجابة لسؤالها والأشجار تتراجع مدحورة إلى الخلف ، والريح تئن ومسّاحات المطر تدور جيئة وذهابا لتعود فتدور ، ولحظة النشوة راحت وكجراب أفرغ مافيه ، يبدو رفيق وعجلة القيادة تلتمع بالعرق ينزف من يديه . مضت لحظة مجد رفيق ، امتصت وجوده وتركته ينزف عرقا ، مضت اللحظة التى يدفع العمر ليحياها وتدفع العمر لتتحاشاها . هل حياته ومضات متقطعة لا يربط بينها رابط ؟ هل هى لحظة مجدها أيضا ؟ لحظة لملمت أسلحتها الموروثة والمكتسبة وقد تعيّن عليها أن تواجه الرجل الضاحك على شفا هوة بلا قرار ؟ هل كانت اللحظة ، وقد أنقذت محمد من خطر مؤكد ، لحظة هزيمة بالنسبة إليها أم لحظة انتصار ؟ تبقى الأسئلة بلا جواب وهى الآن تندفع فى الظلمة إلى أين ؟ لا تدرى ، بدأت الرحلة : الآن ، أم لحظة ولدت ؟

الفصل الثالث

اتجهت السيارة إلى ضاحية صغيرة من ضواحي القاهرة ، وتوغلت داخلها وفى شارع جانبى أشبه بالحارة أبطأت سرعتها . وبدت الجيرة مظلمة فيما عدا نورا ينبعث من محل بقالة صغير جلس صاحبه على عتبته يدخن الشيشة والعربة تتوقف أمام باب حديدى كبير مغطى بالصفيح .

ووقفت سامية أمام باب السيارة الخلفى تنتظر أن ينزل محمد بدوره ، وبقى مختبئا فى قعر السيارة ، وتساءلت وهى تتبع رفيق إلى الباب المغطى بالصفيح : هل تم الاتفاق مسبقا على أن يختبىء محمد ؟ هل هذا جانب من خطة رفيق ؟ وإن كان الأمر كذلك فكيف يكون وضعها هى فى هذا المكان ؟ وانفتح الباب دون أن يطرقه رفيق محدثا ضجة كفيلة بإقلاق راحة الجيرة بأكملها ولكن الجيرة فيما يبدو سادرة فى نوم عميق ، وعلى عتبة الباب ظهر رجل يقول :

ـ أهلا وسهلا .

ـ صاحب البيت .

قال رفيق ، وتأملت هى صاحب البيت فى دهشة ، شىء ما غريب فى صاحب البيت هذا ، العجوز ؟! الشاب ؟ صوته الضخم لا يتمشى بحال مع جسده القصير النحيل . بمن يذكرها وبماذا ؟ وهل سبق أن واجهته بدل المرة مرات ؟! وشىء ما غريب فى المكان كله ، الحديقة ليست بحديقة ، مامن زهور ، مجرد أرض مزروعة بالخس والفجل والجرجير تجمع مابين مبنيين قميئين ، واحد فى أقصى اليمين والآخر فى أقصى اليسار .. فى أيهما ستقيم هى مع محمد ؟ ولكن كيف تقيم مع محمد ووجوده مجهول من صاحب البيت ؟ وإلى أين تؤدى خطة رفيق ؟ واستوقف نظر سامية أعلى المبنى أقصى اليمين برج بفتحاته الدائرية وأحكمت معطفها وهى تتساءل

أهو برج حمام أم برج مراقبة ؟ ومن خلف الفتحات الدائرية طالعتها عيون لا تغفل ولا تنام ، وقال صاحب البيت مصافحا رفيق :

- أهلا سى فايق .

ورفيق يستجيب كما لو كان فايق هو اسمه الحقيقى .. مقتضيات الأمن ؟ وتأتى على سامية أن تسلم ألا شىء حقيقى فى الموقف كله حين قال صاحب البيت :

- أهلا بالعروسة . البيت نوّر .

وسلمت سامية فرضا بأنها هى العروس ، وتأكدت من صحة هذا الافتراض وصاحب البيت يصافحها فى حماس تنفر منه وعيون ترقبها من خلف الفتحات الدائرية لا تغفل ولا تنام . أهى من مقتضيات الأمن أيضا ؟ ويدها راقدة فى يد صاحب البيت يهزها فى عنف وخطة رفيق الجهنمية حقا تستكمل أبعادها . رفيق جاء لينقذ محمد أم ليرسخ على أنفاسها هى ؟.. هو العريس وهى العروس وأين دور محمد ؟ أم لا دور له هنا على الإطلاق ؟ وعنف صاحب البيت لا يزال يهز يدها ، يتزايد المرة بعد المرة نفورها منه . ولكز رفيق سامية بكوعه منبها إلى ضرورة الاستجابة لحماس صاحب البيت .

وبدأت ترفع ذراعها وتخفضها فى حركة آلية ويدها مستقرة فى يد صاحب البيت . لابد فيما يبدو لمن يدخل هذا البيت أن يلعب دورا ، الدور الذى يرسمه له صاحب البيت . وماذا عن دور محمد أم لا دور له سوى أن يقبع متجمد الأطراف فى قعر العربة ؟ كيف لم يخطر فى بالها من قبل أن محمد قد يتجمد من البرد ؟!

وبدا صاحب البيت لسامية ممشوقا للغاية وهو يحكم الرتاج الحديدى على الباب المغلق ، وهو يقود الطريق إلى البيت فى أقصى اليسار بخطوات سريعة وقوية عبر ممر من الطين وآخر مفروش بالحصا يلحق به رفيق وخلفهما تلهث هى . وتوقف صاحب البيت فجأة مشيرا إلى البيت ذى البرج فى أقصى اليمين ، واستعاد رفيق توازنه قبل أن ينطرح أرضا .

وضحك صاحب البيت حتى غابت ملامحه فى غضون وجهه العميقة ونغز رفيق فى وسطه وهو يقول :
- مش علىَّ ياواد إنت ، إلعب غيرها .

وتبادل صاحب البيت ورفيق النغز والضحك على شىء لم تدر سامية ماهو ، وقال رفيق وهو يشير إلى البيت ذى البرج فى أقصى اليمين بصوت لا يحمل أثرا لضحكته التى انتهت مبتورة :
- وحضرتك عايش هنا مع العيلة طبعا ؟
- وحيد يابنى وحيد ، مقطوع من شجرة .

قال صاحب البيت وتبادل هو ورفيق النغز والضحك من جديد ، ونظرة سامية تستقر على المبنى الذى يتوجهون إليه أقصى اليسار . صغير إلى ما لا حد كبيت الدمى : ألم يجد رفيق مكانا أرحب ؟ كم حجرة يحتويها هذا المكان ؟ رفيق جاء ليبقى فأين يقيم ؟ وأين تقيم هى ومحمد ؟ سيىء للغاية أن يقيما فى نفس المكان مع الآخر والأسوأ .. واستبعدت سامية الخاطر كمستحيل من المستحيلات وهى ترتقى سلما من أربع درجات وصاحب البيت يخرج من جيبه حلقة مفاتيح ضخمة وكأنما جمعت مفاتيح المدينة مجتمعة ويختار بلا تردد المفتاح المطلوب ويفتح الباب الخشبى ويضىء النور منتصرا :
- مستحيل .

قالت سامية والمصيدة تطبق عليها ، امتدت أمامها حجرة وحيدة ، طويلة كالممر ، يتوقع الإنسان أن تنتهى إلى شىء ولا تنتهى إلى شىء .. فى عرض الحجرة المواجهة للباب انحشر سرير حديدى أسود يرتكز على قطع من البلاط المكسور وتكاد قضبانه تغيب فى سقف الحجرة الرمادى المنخفض ، وإلى يمين الباب امتدت أريكة تدلت أحشاؤها المعدنية على الأرض وإلى يساره صوان ملابس تتوسطه مرآة مشروخة يجاورها دولاب ساعة ذات بندول يتحرك جيئة وذهابا وفى وسط الحجرة ومابين الأريكة والصوان مائدة طعام حولها مقاعد أربعة . وصاحت سامية وقد اكتشفت أن

البيت من غرفة واحدة .
ـ مستحيل .

وتساءلت : أكان الآخر موجودا دائما معها ومع محمد قبل أن تطأ هذا المكان ، منذ بدء علاقتهما ؟ وكادت تسلم بأن الآخر هو قدر المحبين الذى لا إفلات منه ، وودت أن تترك كل شىء خلفها وتهرب . وتأكدت أنها لا تملك رفاهية الهروب ومحمد يقبع متجمداً فى العربة وتجاهلت نظرة التحذير تطل من عين رفيق ، وقالت لا تنتظر لسؤالها جوابا :
ـ فين بقية الأوض ؟

ونهى رفيق سامية فى صرامة ونهائية :
ـ البيت كويس كده يازاهية .

وبدا صاحب البيت كما لو كان على وشك البكاء ونغزه رفيق فى وسطه وقال :
ـ ولا يهمك منها ، البيت عال العال .

ولكن صاحب البيت لم يضحك هذه المرة . بدا مهموما ونظرته مركزة على سامية وفجأة أشرق وجهه وهو يسحبها إلى المطبخ ، ولاحظت سامية وصاحب البيت يسحبها مقهورة إلى المطبخ أن جسده المشدود كجسد صبى لا يتمشى بحال مع وجهه الملىء بالغضون العميقة ، ولمبة المطبخ محروقة ، قال ، ولكن الكهرباء سليمة مائة فى المائة والمطبخ صحى لا يعدله فى البلد مطبخ وستتبعها الشمس أينما وقفت تطبخ بإذن الله لقمة هنية . وجر صاحب البيت سامية من ركن إلى ركن وهنا شمس وهناك ، ولا شىء يبدو فى الظلمة خلف زجاج النافذة سوى رذاذ المطر وسور شاهق الارتفاع ينتهى بأسلاك شائكة . وصاح صاحب البيت :
ـ شمس .
ـ شمس .

تمتمت سامية وهى تدرك أن على من يعبر الباب أن يلعب لعبة صاحب البيت . وخطر فى بالها أنها لعبت دائما لعبة صاحب البيت ، متى وأين لا

تعرف ، وان تمكن منها الشعور بأن صاحب البيت كان دائما معها بصورة أو بأخرى يملى عليها دائما وأبدا لعبته . وتساءلت بماذا يذكرها هذا الرجل وبمن ؟ بالحاكم الوحيد والأوحد ؟ بأبيها ؟ بواعظ المسجد يهدد بالنار وبئس المصير ؟ بالمعلم يطلب منها أن تفرد يديها ؟ وانسحبت سامية من المطبخ منهكة وجلست على مقعد إلى جانب المائدة . ولكن اللعبة لم تنته بعد فيما يبدو فقد عاد صاحب البيت يحاول سحبها إلى الحمام هذه المرة .

- الحمام معتبر ، ضرورى أوريك الحمام .

وسحبت سامية يدها من يد صاحب البيت فى نفور وقالت معتذرة :

- بعدين .

وأكدت نظرة رفيق أن سامية ستفسد كل شىء ، وقامت هى واقفة تتبع صاحب البيت وفى الحمام لم توفق سامية إلى الاستجابة المطلوبة وصاحب البيت لا يكف عن أن يمد ذراعه إلى مفتاح النور ويعود يطويه دون أن يمس المفتاح . وأنقذ رفيق الموقف قبل أن يتأزم ، صاحب حركات صاحب البيت وهو يردد : اللمبة محروقة ، مش محروقة ، وقفز يهلل للنور الذى اشتعل أخيرا وهرول صاحب البيت إلى صنبور المياه وهو يقول :

- الميه ميه معدنية معتبرة .

وذات اللعبة تتواصل ورفيق يكرر : فيه ، مافيش ، وكرهت سامية صاحب البيت ورفيق وتأكد لها أن محمد يختنق فى العربة . وأوقف رفيق اندفاعتها إلى الخارج وهو يسد بذراعه باب الحمام . ووعد صاحب البيت بملء الخزان عندما ينقطع المطر والتقط حلقة المفاتيح من على المائدة وقال :

- الليلة تحلى ياعرسان ، الليلة مزاج ، تصبحوا على خير .

واستوقفت سامية صاحب البيت قبل أن ينصرف :

- المفتاح .. مفتاح الشقة .

وأخفى صاحب البيت سلسلة المفاتيح خلفه وأوشك أن يبكى ولم يقلل

هذا من تصميم سامية التى عادت تقول :

ـ المفتاح .

ووعد صاحب البيت بإحضار المفتاح فى الغد بعد تزييته تزيتية معتبرة . وحين طالبته سامية بمفتاح الباب الخارجى غابت ملامحه فى غضون وجهه وهو على وشك الولولة ، وتدخل رفيق منقذاً للموقف :

ـ جرى إيه يازاهية ، الباب البرانى مالوش مفتاح ، له ترباس من جوه .

وطرق صاحب البيت باب الشقة خلفه وهو يقول :

ـ البر أمان ، وأنا مابغفلش ولا أنام .

الفصل الرابع

ما أن انفلتت سامية خارج الشقة رغما عن رفيق وبلا سابق تفكير أو تدبير ، حتى أدركت جنون فعلتها . أفقدتها المناقشة مع رفيق عقب خروج صاحب البيت توازنها ، كانت مرة كالحنضل وكان هادئا متماسكا ولكل سؤال عنده جواب يعيدها إلى واقع تحاول عبثا الإفلات منه ، سيتجمد محمد فى العربة ، قالت : إما أن يتجمد أو نقع ثلاثتنا فى قبضة البوليس ، أجاب وأصاب ، الوضع لا يحتمل بحال اندفاعاتها العاطفية . وانطفأ النور ، قالت : وهى تعنى ماهو أكثر من انطفاء النور عند صاحب البيت ، ورفيق يقرر ألا مكان للعواطف هنا وأن الوضع يقتضى أن يتحول الإنسان إلى آلة تحسب وتخطط ، وانطفأ النور رددت ، وهى تندفع مجنونة خارج الشقة لتعود بمحمد . وما عسى أن يستطيع من هو محاصر بين عيون مغروسة فى أعلى البرج وصاحب بيت لا يغفل ولا ينام ؟ برج حمام ، قال رفيق : مجرد برج حمام ، وصاحب البيت ؟ مجرد صاحب بيت قد يكون أقل ضررا من غيره من أصحاب البيوت ، وما غريب إلا الشيطان ، أكد رفيق . وتنهدت سامية فى ارتياح وقد فرغت من تحريك مزلاج الباب الخارجى دون أن يحدث صوتا ، وتبقت ـ وعيون البرج مغروسة فى ظهرها ـ مهمة أخرى لم تعمل لها حسابا : أزيز الباب كفيل بإقلاق الجيرة مكتملة ، فكيف يتأتى لها أن تفتحه دون أزيز ؟ عليها أن تكون حريصة ، فى منتهى الحرص فهم يرقدون على أنفاسها ينتظرون أن تفشل . من هم ، صاحب البيت ؟ رفيق ؟ وكيف تجمع فى نفس واحد بين رفيق الذى أنقذ محمد وصاحب البيت الذى يهدده ؟ أكد رفيق وهى تندفع خارج الشقة أنها ستفسد كل شىء . وبدا

كما لو كان يود لو فعلت . واختلطت عليها الأمور وهى تزيح الباب قليلا ثم تطلق أنفاسها وتعود واجفة تزيحه . ودفعت سامية الباب دفعة واحدة .. لا فائدة لا فائدة من الاحتراس فقد فشلت ووقف صاحب البيت على عتبته يسأل :

ـ مين ؟!

ولعب يلعب فهو لاعب ، أفضل تعريف للسلوك المطلوب ، قال رفيق ، ولا يهم فى شىء أن تريد أو ألا تستطيع ، فما من اختيار فى دنيانا هذه ، والعبى قالت أمها ، وكررت حتى انفلق الحجر وهى راغبة عن اللعب المحسوب . وقالت سامية :

ـ أنا .

وتلقت بالطبع السؤال من صاحب البيت وهو يتقدم يحمى رأسه من المطر بصحيفة :

ـ أنت مين ؟

وأنا العروس ، تقول ، وتقطع فاقدة الهوية شوطا طويلا من التدريب المطلوب . ولعبة صاحب البطارية الضاحك كانت استثناءً ، واللعبة هنا هى القاعدة . ولكننا نلعب على رقابنا ، تقول ، وهذا بالضبط ما يحتم علينا أن نلعب ، يجيب رفيق وأمها تقسرها على ما لا تريد ، تقلم أظافرها تُدجّنها وسؤال صاحب البيت يواتيها والصحيفة مبتلة على رأسه :

ـ رايحه فين ؟

وتأكد لسامية أنها عاشت هذا الموقف بالذات وشخص ما يشرف عليها منتصرا وهى تحاول عبثا تجميع أشلائها ، أين ومتى ؟ فى حضرة أبى فى البيت القديم ؟ فى قاعة الدرس ، وسؤال مستعص يداهمها ؟ فى لومة لائم فى نظرة إغفال فى ضوء بطارية فاضح ؟ وأمها تتساءل : هل ضاعت تربيتى هباءً ؟ وهى توجه السؤال لرفيق : وماذا لو لم أكن مؤهلة بما فيه الكفاية للعب ؟ وما عساى أن أقول الآن والإجابة الوحيدة للسؤال حقيقة لا ينبغى أن تقال ؟ ولعب يلعب فهو لاعب . وما عساى أن أفعل الآن ومامن



مفردة من مفردات اللعبة تواتيني ؟! وأغمضت سامية عينيها فى استسلام ونغزها صاحب البيت فى وسطها يسأل :

- عايزين بيرة ؟

ولم تدرك ما يقول وعاد يكرر والقى لها من حيث لا يعرف بطوق النجاة والبقالة المجاورة مفتوحة الباب . والتزمت الصمت ، استكثرت أن تجيب بالإيجاب والبيرة خارج كل سياق . وغمز صاحب البيت بعينه غمزة ذات طابع جنسى فاضح وقال :

- الليلة البيرة تحلى .. تبقى مزاج .
- احنا عايزين عيش ، عيش وبس .

قالت سامية والتمعت عينا صاحب البيت كالخرز ونظرته تقول : مش علىَّ يابت إنت ، إلعبى غيرها . وتوقف صاحب البيت عن الضحك وأشار إلى سامية بالاقتراب منه ، وهو يقول بصوت متآمر :

- أجى معاك ؟

وهزت سامية رأسها بالنفى وضرب صاحب البيت الأرض بقدمه وأصابها رشاش الطين وأصابه وودت لو أمسكت بزمارة رقبته وهو يردد :

- ضرورى أجى معاك .

العبى ياسامية العبى ، على طيلة العمر مقسورة تلعبين ، ففيم التعفف الآن ؟ العبى عبر جسدك مهدودا وصوتك يكاد ينحبس العبى . أوامر أمك تتكرر تفلق الحجر وزوجك يتجمد فى العربة ويتأتى أن تلعبى ، ما من اختيار . لملمى مفردات اللعبة من حصيلتك الموروثة والمكتسبة والعبى . وعدلت سامية رباط الشعر وقالت بصوت معسول ، وكأنما تهدهد طفلا :

- ودا معقول ! نخرج ونسيب البيت لوحده كده ؟
- حانتظرك لما ترجعى ، واقفل الباب وراك .

قال صاحب البيت ومضى يهرول إلى بيته ، وانفلتت سامية خارجة .. عليها ان تتصرف وبسرعة قبل ان يتنبه صاحب البيت : تدخل محمد فى حرص وسكون وبمجرد أن يفلت من دائرة النور تلحق به . كيف ؟ محمد

غير موجود ، قال رفيق ، فكرتي .. عريس وعروسته ، حاجة في منتهى البراءة ، في منتهى البراءة . وستكون الضربة ولا شك قاضية إن اكتشف صاحب البيت وجود محمد ، وتساءلت هي إلى متى نبقى تحت رحمة صاحب البيت ؟ وقال رفيق : أدى ربك وأدى حكمته ، وهو يقلد صوت امرأة عجوز ، واندفعت سامية إلى السيارة ودارت حولها حتى وقفت في الاتجاه المضاد للبيت وأدارت مقبض الباب الخلفي تهمس :

- محمد .

- إتأخرتم عليَّ ياسامية .

قال محمد وسامية تلقى له برباط شعرها وتخلع عنها معطفها :

- إلبس .

وجلس محمد في قعر العربة يولي سامية ظهره ووجهه مصوب إلى البيت وهي تساعده على لبس المعطف وتقول هامسة :

- على طول ، البيت على الشمال .

وقال محمد وهو يخرج من السيارة :

- وإنت ؟

- جاية وراك على طول .. ادخل .

وأضافت معتذرة وهي تشير إلى غطاء الرأس والمعطف النسائي الذي يرتديه :

- آسفة دي الطريقه الوحيدة .

ولم يستمع محمد إلى بقية جملتها ، دار حول السيارة وهو منحنٍ ثم مرق عبر الباب . وتوقفت أنفاس سامية وهي ترقب محمد يتقدم ، ستتبعه إلى الداخل بمجرد أن يفلت من دائرة الضوء وانطلقت أنفاسها دفعة واحدة والهواء من سخونة أنفاسها يتحول إلى دخان وتقدمت نحو الباب الخارجي وهي تتصور وجه رفيق حين تدخل عليه مبتسمة في انتصار . وتسمرت سامية فجأة ملتصقة بالباب .. جاءها صوت صاحب البيت من الداخل يقول لزوجها وقد خلط بين شخصيته وشخصيتها :

- تصبحى على خير ياعروسة .. صباحية مباركة بإذن الله .

وانغلق الباب دون سامية ونزلت قبضتها عليه دون أن تمسه وصوت المزلاج مشروخا ينزلق من الداخل وصوت فخم ضخم جاف يقطعه السعال يردد كأنما يتغنى :

- البر أمان .. البر أمان .

الفصل الخامس

انكمشت سامية فى وقفتها وهى تسدل ثوبها على ساقيها تحميهما من لفح الريح وقطرات المطر . تستطيع آن تحتمى بالعربة ولكن من الأوفق آن تبقى قريبة لكى تفلت إلى الداخل بمجرد آن ينفتح الباب . ومدت يدها إلى شعرها تزيحه عن عنقها وهى تعتصره من الماء .. عليها أن تتماسك ولن يطول الانتظار ، سيفتح محمد الباب مهما كلفه الأمر . وهذه حقيقة لا تتحمل الشك .. آنا نفسى أعمل حاجة عشانك ، حاجة كبيرة تثبت لك مقدار حبى لك ، قال محمد وهو يمسح بشفتيه على جفنيها المسدلين ، وحملت لها الريح رائحة الياسمين من المنازل المجاورة قوية نفاذة ولمعت الدموع فى عينيها . ضحك محمد وهو يملأ يديها بزهر المشمش كفاية ؟! لا أنا عايزة شجرة بحالها ، لا دى تبقى حكاية ، الشجرة عايزة جنينة والجنينة عايزة بيت والبيت عايز .. وأطبقت بيدها على فمه حتى لا يكمل ، لن تتركه يفسد الحلم الذى تعيشه بالحديث عن الماديات ، والحلم بدا وذراع محمد تلتف حول خصرها حقيقة لكليهما .

وجرت سامية إلى الباب وحبست أنفاسها وهى تحد السمع لخطوات لا تبين .. فى السرير حدت السمع لتلك الأصوات التى لا تبين ، ماذا لو أبانت ؟ الأصوات على وشك أن تتشكل فى كلمات ولا تشكل وتستلقى هى على السرير بلا حراك متوهجة العينين ، متى يأتى النداء ؟.. لا تعرف ولكن حناياها تردده والجو مشحون به حتى يخيل إليها أنها تستطيع أن تمد يديها وتحتويه ، سيأتى النداء ربما فى الغد فى اليوم الآن ، وعندئذ ستعرف السعادة التى ليست بعدها سعادة ، ستمسك بالسعادة ولن تدعها

تفلت ولم تفلت منها ؟ السعادة حقها ونصيبها وما عليها إلا أن تمد يدها وتحتويها وسيرقد العالم كله تحت قدميها .. أنا جميلة وأنا صغيرة أنا فى السادسة عشرة من عمرى ، فى حناياى بحور من حنان لم يرتدها إنسان ، شفتاى تينة متفتحة يبللها الندى لم يطلع عليها بعد صباح . خداى متوهجان بخمر الحياة ، عيناى بحيرة من عسل لا تعكس سوى الجمال ، فمتى يأتى النداء ؟ الأصوات على وشك أن تبين ولا تبين على وشك أن تتشكل ولا تتشكل ...

وتراجعت سامية عن الباب مقهورة . لم يكن ما سمعته دبيب خطوات بل حفيف أوراق الشجر . نور ؟ هل رأت بصيصا من النور ؟ وعادت تنظر من ثقب الباب الحديدى .. هناك نور قطعا يتسلل من عتبة باب ومحمد لابد أنه فى الطريق إليها . لن يطول الانتظار . ولسنا فى شهر عسل ولا فى رحلة ترفيهية ، قال رفيق وهى ثائرة لانه لم يجد مكانا أرحب وأفضل ، مكانا تتوافر فيه الخصوصية لها ولمحمد ، وأكد رفيق أن الأشياء نسبية وعامل الوقت تحكم فى الاختيار وعامل الخطر . وتساءل إن كانت بطيئة الفهم أم ترفض الواقع وتسعى إلى دنيا على هواها غير الدنيا ؟

نعم يتأتى على كل من يدخل هذا البيت أن يتنكر ، قال : وكفى مطلقات عن الهوية وهذا الكلام الفارغ ، نعم على الإنسان أن يتكيّف مع أوضاعه وتبقى الأشياء نسبية والبقاء للأصلح ، قال : الأسماء المستعارة أنقذت محمد من السجن . وسؤال من أنا ، سؤال لا تكف هى تردده وشعرة تفصل مابين النجاة والهلاك والرجل الضاحك يسلط نور بطارية فى عينيك .

وأخيرا ، أخيرا ستدلف إلى الفراش ، إلى الدفء وخطوات تقترب ، أهى خطوات محمد أم رفيق ؟ والخطوات تقتحم ولا تتسلل والرعب يشلها ، خطوات تدب فى ثقة على أرض الشارع وكأن صاحبها يملك الأرض وما عليها . وانحرفت سامية تختبىء خلف شجرة وعسكرى الدورية يمر والتصقت بالشجرة وودت لو انفتحت وابتلعتها .. سيعود حتما سيعود ، وتسللت إلى الباب الحديدى المغلق تتحسسه بيدها وكأن من الممكن أن ينفرج عن فتحة تنفذ منها .. لا تغلق الباب دونى ياحبيبى ، أرجوك لا تغلق

الباب ، دعنى أدخل ، فى حناياى حب مضى وحب آت ، طيات فوق طيات نسجتها كل ليلة فى سريرى وأنا فى انتظارك ياحبيبى ، سريرى بارد ياحبيبى ، بدونك قبر يطوينى بلا غفوة الموت ، بيقظة الحرمان بأحلام القلق بوحدة الموت .. متى تنكسر وحدتى ؟ وانطويت عنى وكتفك يلاصق كتفى وعبيرك فى أنفى فى جسدى فى أطراف أصابعى . أهو عبيرك أم عبيرى أم عبيرنا معا ؟ أم هو لا أنا ولا أنت بل هذا الإنسان الفريد نحن .. وتمنيت لحظتها لو مت .

بودى لو سألتك الآن ، لم تمنيت إذ ذاك أن أموت وأنا أعتلى القمة التى ليست بعدها قمة ، الدفء يتسلل إلينا من المدفأة ووهج النار ينعكس على وجهك ، وأرتخى وأنا أمد يدىّ إلى النار أدفئهما وأنتظر إجابتك ، بعد برهة ستتكلم ، فى لمحة سنصبح هذا الإنسان الفريد نحن ، فى لمحة سأعرف كل ما تمنيت يوما أن أعرفه ، وأفهم كل ما استغلق علىّ فهمه ، فى لمحة سأرتاد معك القمة التى ليست بعدها قمة .. ولماذا لا تتكلم ياحبيبى لماذا لا تتكلم ؟ لا وقت لا وقت لكى يسترخى الإنسان ويتكلم ، لا وقت ليلتقى الإنسان بالإنسان وإن التقى لا يدوم اللقاء ، لا دوام ، لابد للإنسان أن ينحدر من القمة إلى السفح .. لماذا لا تفتح لى الباب ياحبيبى ؟ لماذا لا تتكلم ؟ أم لعلك فتحت الباب ولم أر وتكلمت ولم أسمع .. عيناى مفتوحتان ترقبان ولم أر ، أذناى منصتتان ولم أسمع .. بماذا انشغلت عنك ؟ بطرقة على الباب ، بنور بطارية تحرق العينين ، بعيون البرج مغروسة فى الظهر ، بخطوات رتيبة ولدت معى يوم ولدت لا تتسع عيناى وأذناى لسواها ، خطوات تدب فى ثقة وكأن صاحبها يملك الأرض وما عليها ؟!.

واستولت على سامية رغبة جامحة فى أن تلقى بنفسها فى عرض الطريق لتسحقها الخطوات فلا تعود ترى ولا تسمع واقتربت خطوات عسكرى الدورية من جديد ولم تتحرك سامية من مكانها ، لم تتسلل لتختفى خلف الشجرة كما كان ينبغى أن تفعل ولم تلق بنفسها فى عرض الطريق كما ارادت . وقفت ترتجف لصق الباب وبصيص من نور ، ومر عسكرى الدورية وهو نصف نائم فلم يرها .

وعندما اختفى عسكرى الدورية فى الاتجاه المضاد بدأت سامية تدور حول سور البيت تبحث عن ثغرة ، تتحسس الجدار فى عناية بيديها ، تشب على قدميها لتصل إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه ثم تنزل بيديها من أعلى إلى أسفل وهى تنحنى ، تكاد تركع على ركبتيها .. لابد أن هناك فى مكان ما ثغرة تستطيع أن تنفذ منها إلى الداخل .. ليست قريبة كما حسبتها وهى فى السادسة عشرة من عمرها بحيث تمد يدها وتحتويها ، يداها لاتتحسس سوى الصخر . وفى بطء تحركت سامية بجوار سور البيت ، تشب وتنحنى خطوة بعد خطوة ، وخدشت يدها قطعة مدببة من الطوب وبدأ خيط رفيع من الدم يسيل ، ولم تشعر سامية بالخدش واستمرت تتحسس السور .. ليتها تستطيع أن تحرقها ، لو كانت معها لحرقتها .. ولكنها هناك فى البيت القديم محبوسة فى إطار فضى منقوش بالورود ، صورتها وهى فى السادسة عشرة من عمرها . تحرقها ، وما حاجتها إلى أن تحرقها وقد أحرقتها الأيام ؟ أحرقت البلهاء بابتسامتها البلهاء وبراءتها البلهاء ، شفتاها تنتظران فى ثقة واطمئنان النعيم الذى ينعكس فى عينيها . السور قارب على الانتهاء ولا ثغرة هناك ، البلهاء لم تدخل الثغرات فى حسابها وما حاجتها إلى الثغرات ؟ الدنيا دافئة كشعاع من الشمس يطويها ويسلمها للخدر ، الدنيا مثيرة كومضة برق ، الدنيا أصيلة كفص من الماس الحر ، الدنيا بساط ريح يحملها إلى القمة وفى القمة يبقيها ، يحدوها بأجراس الفرح الفضية بألوان قوس قزح بومضات أشعة القمر على سطح عميق وساكن من الماء ، بأهازيج الحب الدائم والمتجدد .. البلهاء ! السور محكم وكأنه سور السجن .

انتهى السور ولا ثغرة هناك .. مثالية قال محمد ومن بعده رفيق ، الأشياء نسبية وكفانا مطلقات ، البرج برج حمام وصاحب البيت ليس بالغريب ولا غريب إلا الشيطان ، قال رفيق ، وكل شىء وارد فى دنيانا هذه وجائز وما من ثمة مكان أمثل . ولكل بيت صاحب وقد يكون صاحب البيت هذا أهون ضررا ، ولعب يلعب فهو لاعب أفضل تعريف للسلوك المطلوب قالت أمها ومن بعدها أبوها والناس ، كل الناس . واللعب المحسوب هنا وهناك وفى كل مكان .

وتساءلت سامية ان كان هذا بصيصا من نور أم هى تتوهم . هل مازالت بلهاء وهى فى الخامسة والعشرين ؟ الأكيد أن بصيصا من نور ينبعث من عتبة باب مغلق ، وأن عليها أن تنتظر لتلج هذا الباب .

واتجهت سامية إلى السيارة وتمددت فى جوف المقاعد الخلفية تنتظر . ولم تلبث ان سقطت فى غفوة النوم أقوى من خوفها من شعورها بالبرد ، من أملها ويأسها . وصحت على صوت المؤذن ينادى للصلاة . وانكمشت فى قعر السيارة وأزيز الباب يتعالى كفيلا بإيقاظ الجيرة مكتملة وصاحب البيت يخرج إلى الشارع ، عروق يده زرقاء نافرة وأصابعه تسحق حبات المسبحة وفمه يتلوى وهو يبسمل ويحوقل . وانسلت سامية داخلة إلى البيت بعد أن ابتعد صاحب البيت .

عبرت سامية الممر المفروش بالحصا إلى بيتها الجديد وقرعت الباب قرعة خفيفة ووقفت تنتظر لحظة وعيون البرج لا تغفل ولا تنام مغروسة فى ظهرها ، وانفتح الباب فتحة صغيرة ، وبدا رفيق بكامل ملابسه على عتبته ، وارتجفت سيجارته بين شفتيه وهو يبتسم فى دهشة وتراجع إلى الخلف يفسح لها الطريق . وبعد أن أقفل الباب فى حرص صاح :

- دى مراتك يامحمد ؟

وخرج محمد مندفعا من الحمام وهو يحمل حزمة من الأوراق فى يده انفرطت على الأرض وهو يرقب سامية فى استغراب . وبدا محمد لسامية بعيدا ومتنائيا وهو يقف يتفحصها هكذا ، وارتفعت يداها بلا وعى تسوى شعرها وعادتا ملطختين بالطين وقال رفيق ودخان سيجارته يتجمع حلقات بعد حلقات :

- إيه يامحمد إنت مش عارفها ؟

ومال برأسه إلى جانب ، وبإشارة من يده اليمنى والسيجارة مازالت فيها مشتعلة قدمهما الواحد للآخر :

- زاهية .. محمد .

وأبعدت سامية ثوبها المبلل عن جسدها واقترب منها محمد يقول فى قلق :

ـ جرى إيه ياسامية .. إنت عملت فى نفسك كده ليه ؟ إحنا طول الوقت فاكرين إنك قاعدة فى العربية ورفيق كان يدوب خارج لك .

وراقبت سامية حلقات الدخان تتمدد حلقة بعد حلقة وقالت لمحمد فى حياد وبلا عتب :

ـ كنت منتظرة إنك حتفتح لى الباب .

وامتدت ذراع محمد إلى سامية ، وكادت تلمس خصرها ثم ارتدت إلى جنبه وهو يقول :

ـ كان بودى ولكن .. أرجو أن تكونى فاهمة الوضع ياسامية .

وتبادل محمد ورفيق نظرات متفهمة ألقت سامية نائية معزولة خارج الدائرة ، ولأول مرة فى حياتها استشعرت الخجل فى وجود محمد وتمنت لو لم يكن قد رآها هكذا ملطخة بالطين ، وسحق رفيق سيجارته بقدمه على البلاط وقال :

ـ ربنا ستر ، لولا الصدفة كانت سامية ودتنا فى داهية .. أنا ..

ونهر محمد رفيق فى رقة عن إكمال ما بدأ ، وانكمش أنفه وهو يضحك ضحكة خفيفة عابرة يزيل بها التوتر الذى ساد للحظة وتمعنت سامية فى وجهه وأدركت أن مدة طويلة من الزمن قد انقضت على آخر مرة رأت فيها هذا الوجه .. سنة وسبعة عشر يوما . وروعها هذا الإدراك وكأنها لم تدرك حتى هذه اللحظة مرور الزمن ، ومحمد يربت على كتف رفيق يقول :

ـ حرام عليك ياشيخ .. البنت تاعبة نفسها عشان خاطرنا .

والدائرة تعزل سامية خارجا عنها ، تنأى بها وحيدة وعيناها تغيمان وهما تتركزان على بندول الساعة يتحرك جيئة وذهابا ، يبدو على وشك أن يتوقف ولا يتوقف وهى جالسة على مقعد طبيب الأسنان وآلة الحفر تنخر فى عقلها تدور وتمس العصب تتوقف لتعود تمس العصب . ولمحت سامية الأوراق التى انفرطت من يد محمد منثورة فى فوضى فى الصالة ووجدت نفسها تركع على ركبتيها تجمعها بيد مرتجفة لتعود فتنفرط والبندول ينخر فى العصب . ومال محمد نحوها يمسك بيدها ويقول :

ـ مش مهم ياسامية .. ادخلى إنت خدى حمام وغيرّى هدومك .

وتشبثت يدا سامية بالأوراق تنفرط وتعاود جمعها وكأن كيانها بأكمله يتوقف على إعادة ترتيب الأوراق ، واستقامت وهى تتنهد ووضعت الأوراق على المائدة تسويها بيديها وبندول الساعة يزحف جيئة وذهابا والأوراق لا تنتظم . وسحب محمد سامية إلى الحمام وقبل أن يقفل الباب خلفها دس فى يدها شيئا وحين تطلعت إليه متسائلة قال ..

ـ تغييّرة .

وأضـــاف :

ـ هدوم عشان تغيرّى . الهدوم اللى إنت لبساها ما عدتش تنفع .



الفصل السادس

شعرت سامية وهى مابين النوم واليقظة بعينين تتفحصانها وتململت تدفع عنها اليقظة وتتشبث بغفوة النوم .. أشعة الشمس تتألق كحبات ماس على زبد الموج ويدها تضرب الموج إلى جانب يد محمد ، مع يده ، تغيب فى الزرقة وتعود تتبدى كحمامة بيضاء ، جسمها يلين تحت نظرة محمد ، ينساب فى رشاقة وجمال ، من أين جاءتها الرشاقة ؟ من أين واتاها الجمال ؟ محمد يرقبها بعينين تتألقان ، يغيب فى الماء وتنتظر واجفة أن يعود فيرقبها ، يسميها ، يميزها عن الكل فتنساب منتشية فى الماء . محمد ينفض رذاذ الماء عن شعره فيلفهما الرذاذ معا ، يعزلهما عن بقية الناس . محمد يهمس : إنت عارفة عاملة زى إيه النهاردة ياحبيبتى ، زى السمكة البلطى ويداها بلا وعى تسوى ثوب الاستحمام على فخذيها المشدودتين فى امتلاء وهى تدرك لحظتها أنها جميلة فتضحك ، توشك أن تقع فى الحب مع نفسها ، مع جلد وجهها الخمرى المشدود كصفحة رق ، مع قدميها الصغيرتين يدفئهما محمد بأنفاسه قبل النوم ، مع استدارة خدها التى تنحدر فى نعومة إلى اذنها ، كما يقول محمد ، ومع قفاها الذى لا يكف يزيح الشعر عنه .

وارتفعت سامية إلى درجة أعلى من الوعى بددت الحلم وأبقتها محبوسة بين أعمدة سرير سوداء . وطافت عيناها بالحجرة فى استغراب .. محمد يجلس إلى المائدة يوليها ظهره وعلى المائدة أوراق ، المرآة المشروخة والأريكة تلفظ أحشاءها وبندول الساعة يتحرك فى رتابة وهى تركع على الأرض تجمع أوراقا انفرطت ولا تنتظم ، والأكيد أن اللقاء تعذر بالأمس بينها وبين محمد ، كل هذا الشعور بخيبة الأمل ، بالغربة بالحرج بالخجل ،

ما هكذا تصورت اللقاء ! السيل الذى حسبته جارفا لا ينقطع انقطع بالأمس وتعذر اللقاء . أهو مرور الزمن ؟ ولكن ما عسى ان يصنع الزمن فى حب كحبها ، حبنا أقوى من الزمن ومحمد معى وهو غائب ، قالت لأمها ، وانثنت تنتشل من العدم صورة محمد تبهت يوما بعد يوم . أيكون دوام الحب مطلقا آخر من مطلقاتها ؟ أهو العالم الخارجى يثقل عليها بوجوده يسد مجرى السيل الجارف ويملى هذه النظرات المتوجسة ، والشفاه متربصة والانغلاق على الذات ، والكلمات واللفتات محسوبة ؟ هل يستحيل دوام الحب هنا ؟ وصاحب البيت موجود هو ورفيق ، أين ذهب رفيق ؟ وعيون فى البرج وبطارية تغشى لها العين وطرقة على الباب ، أم فات أوان الطرقة ومكان الطرقة حل الاقتحام ؟ اقتحام من ومن ؟ رفيق ليس بالقطع موجودا الآن .

وهمت سامية أن تنادى محمد وتوقفت قبل أن تناديه . رأته يجلس على البساط الوردى فى حجرة المعيشة ، فى بيتها يفسح مكانا للضيوف ، يميل برأسه إلى جانب كعادته وهو ينصت باهتمام والحديث دائر ، يجيد الاستماع ويجيد الكلام ، يكسر الكلفة ويصل الود ويغمر المكان كله بدفئه وفجأة يرفع إليها عينين متوهجتين وهو يدرك أنها تدرك ، ويلفهما وهج العيون لحظة كإنسان واحد يحلق بهما لحظة منفردين عن بقية الناس ، ويتبادلان النظرات لحظة كما لو كانا متآمرين حققا فى زحمة من الناس وفى غفلة منهم شيئا نادرا ما يحققه البشر . ويعود يميل برأسه يستمع إلى الضيوف ويتسارع نبضها وهى تردد غنوة منتصرة : لم أعد وحيدة ياحبيبى حطمت أسر الجسد أنا أنت ياحبيبى أنا معك ، فى عروقك فى الدم أسرى فى نبضات قلبك فى خلجات فكرك فى وهج عينيك ولكن أين ذهب رفيق ؟ أكان موجودا معهما من البداية ، من بداية البداية ، عدوانى ومقتحم ، والغريب ألا يضيق محمد من التفافه الدائم عليه ! ببعض الثقة بالذات يمكن أن يكون إنسانا رائعا ، يقول محمد ، ورفيق نقيضى فى كل شىء ، نقيضى ، تقول هى وتزدهى بالتناقض ، ولا تغفر لمحمد قوله فى سياق آخر : ما أكثر ما تتشابه النقائض .

وراقبت سامية محمد وهو يوليها ظهره منهمكا فى أوراقه ، وانبهرت كما انبهرت دائما باستواء منابت الشعر فى قفاه مسطورة فى خط مستو وكأنما بمسطرة ، مسفرة عن التناقض بين سواد الشعر وبياض الرقبة العاجى ، مصقولا لا تبين فيه فتحات المسام ، ومحمد الآن يقدم علبة الحلوى للضيوف فى حجرة المعيشة ويقف أمامها وبلا سبب يضحك ، يدس العلبة فى حجرها وبلا وعى يلمس يدها ، ومن اللمسة تعرف ويعرف وتلفهما الموجة من جديد ، بعد قليل نخلص من الزحمة ، بعد قليل نقفل الباب ، بعد قليل ، ويضحك وتضحك بلا سبب وينشط وتنشط ويشعران بأنهما بحاجة ماسة إلى أن يبذلا من أنفسهما للضيوف وكأنما يدينان لهم بالاعتذار ، يودان أن يعوضوهم عن شىء فقدوه ، شىء لا يعرفون حتى ماهو ، ويمضيان ، يسامران هذا ويلاطفان ذلك .. بعد قليل ، ويحلفان أغلظ الأيمان بأن الوقت مازال مبكرا ويضحكان أعلى مما يضحكان قبل أن تمتد جلسة الضيوف متأخرة .. بعد قليل ، ما أحلى الانتظار ، وينظر إليها محمد وعيناه متوهجتان ويقول الناس كم هى جميلة وطيبة ورقيقة ، وتقفل الباب خلفهم أخيرا وهى تشعر بأنها تحبهم كثيرا ، هؤلاء المساكين ! واستدارت سامية فى السرير مستعدة للقاء ، تهمس بصوت يخالطه الحنين :

ـ محمد .

وباغت النداء محمد والتفت إلى الخلف فى حركة سريعة ، ورصدت نظرة الخواء فى عينيه وقفزت جالسة فى السرير ، وواجه محمد سامية مرحبا وهو يجمع أوراقه يسوى أطرافها فى حرص على المائدة .

ـ أهلا سامية : أنا مارضيتشى أصحيك ، قلت أسيبك تستريحى أحسن .

وتطلعت سامية إلى محمد ترقبه وهو يتكلم ، شىء ما غريب فى نبرته ، فى التعبير على وجهه ، فى حركته ، ما الذى جد ؟ أهى الآن مهذبة متحفظة ترسى الحدود فيها بينهما أم هى تتوهم ؟ شىء ما قديم وجديد فى النبرة فى التعبير فى الحركة . فبماذا يذكرها ؟ وجلس محمد على طرف السرير يقول :

ـ هيه نمت كويس ؟.

وطوقت سامية ساقيها بذراعيها وقالت فى خفة ..
ـ الحمد لله .

وقال محمد :
ـ وحشتينى قوى ياسامية .
ـ وإنت كمان .

ردت سامية وأدركت انها خجلة ومرتبكة ، ولو لم تكن كذلك لأفصحت فى التعبير عن عمق مشاعرها ، وخاصة الآن وهى على وشك ان تستعيده بعد طول غربة وتلطم .. أنا أنت ياحبيبى أنا معك ، حطمت أسر الجسد فى العروق مع الدم أسرى .. ولكن أين ضاع وهج العينين ؟ أهو الآخر مرتبك وخجول ؟.

وراقبت سامية محمد يجلس على طرف السرير ضاما ساقيه معقود اليدين وتساءلت أين ضاع السيل الجارف يوحدهما معا ؟ وشىء قديم وجديد فى جلسته فى نبرته فى تعبير وجهه يقول : فليلزم كل حدوده . وارتجفت شفتا سامية .. صرحى لمحمد بحبك ياسامية قالت مها ، لمحى حتى . مستحيل ، قالت هى ، إنت عارفة أنا لما باشوف محمد داخل خنه بالشكل ده يتهيأ لى إيه يامها ؟ إنه نقطة زئبق حيطانها مالسة ومدوّرة ، الواحد يتهيأ له إنه ماسكها وهى بتتزحلق من إيده . وضحكت مها : زى دودة القز وانت الصادقة لما تدخل شرنقتها . مستحيل أن تنقضى حياتهما المشتركة وكأن لم تكن ، أن يعودا إلى نقطة الصفر إلى بداية البداية فى علاقتهما .

وبمؤخرة أصبعها مست سامية أنف محمد ، وأمسك بيدها قبل أن تسحبها ووضعها فى ارتباك على راحته وأجرى عليها أصبعه وجبينه يتعقد فيما يشبه الغضب .. تعقد جبينه وهو يدس فى يدها زهرة القرنفل واستدار يوليها ظهره ، كانت كشأنها فى بداية علاقتهما فى حفل من الحفلات التى يحضرها ليراها وتحضرها لتراه والتى يخرجان منها ولا شىء يميزهما عن زحمة الناس ، وسحبت سامية يدها من يد محمد ورفعتها بلا وعى تسوى



شعرها وتقول :
ـ أظن ما شكلى غلط .

قالت سامية وإلى نقطة الصفر تعود ، ومستحيل تقول هى ، وكل شىء جائز فى دنيانا هذه ووارد ، يقول رفيق ، وحد محمد السمع .
ـ تفتكرى حد جاى ؟

وتنفس ارتياحا وتنفست والخطوات تتباعد وعاد محمد يقول :
ـ كنت بتقولى إيه ياسامية ؟

وأجابت متمتمة فى خجل :
ـ ولا حاجة .

وتعلقت أنفاسها ببندول الساعة يتحرك فى رتابة جيئة وذهابا ومحمد بالأمس يقول لرفيق :
ـ حرام عليك ياأخى ، البنية تاعبة نفسها علشان خاطرنا .

على وجهه ذات التعبير يقول : فليلزم كل مكانه . حسبت أنها نسيت هذا التعبير على وجه محمد ولكنه كان على وجهه بالأمس أمام باب السيارة وهو يقول : وانت حتعملى إيه ؟ وفجرا وهو يقول : أرجو أن تكونى فاهمة الوضع ، وعلى وجهه الآن وهى إلى نقطة الصفر تعود وأنا أنت ياحبيبى وإلا خبرنى من أنا ؟

وانقضت سامية على محمد فى حركة مفاجئة تتعلق فى عنقه بجنون وشعرت بوجهه ينحرف لوهلة عن وجهها وبجسده يتصلب لوهلة تحت صدرها ، ودفنت رأسها فى صدره . وطوقها محمد وهو يمسح على شعرها بشفتيه ويرفع إليه وجهها يقبلها فى فمها فى رقة متناهية . وتلقت سامية قبلاته ، قبلة صغيرة بعد الأخرى بشفتين جافتين وعادت تدفن رأسها فى صدره . وهمس محمد منزعجا ..
ـ سامية مالك ياحبيبتى .. إنت مش طبيعية خالص .

وانتفضت سامية واقفة تجاور المرآة المشروخة وعاد محمد يطوقها من الخلف بذراعيه :

- ماتخافيش ياحبيبتى ، ماتخافيش .

ودمعت عينا سامية .. عادت اللغة تقف بينهما كالجدار ، راح الزمن الذى استطاع فيه أن يكمل جملة بدأتها ، وعاد محمد إلى بداية البداية وهو يقول :

- أنا آسف ياسامية انى وضعتك فى الوضع ده .

شهور وشهور وهما يدوران فى دائرة مفرغة يعرف وتعرف تسومه عيناها العذاب ، إلى متى هذا الصمت ؟ ويغوص بحلقه ويمضى وتمضى غريبة بين الغرباء وأنا ميهمنيش يامها ، قالت هى ، أنا لسه على البر ، مادام مش سائل ، أنا كمان مش حاسأل فيه . فى البداية كانت تستطيع أن تقول أنا ، كانت مستقلة عنه ولكن من هى الآن ؟ أنا أنت ياحبيبى والحلقة تكتمل .. من أنا تسأل هى ، وتكاد تسمع محمد يقول الآن ما سبق أن قاله فى البداية :

- أنا آسف ، يظهر سكتنا مش واحدة .

وأسقطت سامية ذراع محمد من حول خصرها ، وتقدمت نحو الأريكة تجلس وفى منتصف الطريق لمحت صورتها فى المرآة المشروخة وبلا وعى أشاحت بوجهها ثم استدارت فى بطء وواجهت الصورة تسأل من أنا ؟ وطالعتها المرآة بكتلة من اللحم بأربع عيون تضيع ملامحها فى العتمة ، وسؤال من أنا يلح على الخاطر من جديد وخبئينى ياأمى أنا لا شىء بالظلمة دثرينى .. وصرخت سامية قائلة :

- مستحيل ، مستحيل .

وسطع نور الحجرة وقال رفيق وهو يقفل الباب خلفه :

- هو إيه اللى مستحيل ؟

وألقى مجموعة من الصحف اليومية على المائدة ووضع فى المطبخ حقيبة ورقية مليئة بالمأكولات .

الفصـل السابع

ضاقت الحلقة ، نشرت الجرائد صورة محمد وفى تحقيقات مستفيضة قصة هروبه من السجن وأدى رفيق كل المهام الموكولة إليه بنجاح ، أخفى العربة وأفسد خطة الشرطة بإبلاغ عدد من الزملاء باتجاه النية لإلقاء القبض عليهم . وبدا رفيق فى قمة انتصاره ومحمد يدعوه بملاكه الحارس وسامية تستعيد وهى تقرأ الجرائد ضيقها فى الطفولة بالملاكين يثقلان الكتف اليمين واليسار ليل نهار يحسبان على الإنسان السيئات والحسنات . وفى تحقيق من التحقيقات بدا محمد كفرانكشتين وفى تحقيق آخر بدا كمارلون براندو يدس الخنجر فى صدر عدوه والابتسامة الساحرة على شفتيه ، وكل شىء وارد فى دنيانا هذه وجائز وما غريب إلا الشيطان ، وسؤال من أنا يلح على الخاطر ورفيق نقيضى ، فى كل شىء نقيضى .

وتوقفت سامية عند التحقيق الثالث ومحمد يعانى من انفصام الشخصية ويتأرجح بين الإنسان العادى والوحش الكاسر مثل دكتور جيكل ومستر هايد وسؤال من أنا يلح على الخاطر . ورفيق منتشيا يعتلى القمة التى ليست بعدها قمة وهو يواجه رجال الشرطة وينسال عرقه أصفر كعرق المحتضرين وقد انفضت لحظة التحفز والتربص للخطر ومحمد يقول بعد مشوار طوله أربع سنوات .

ـ أنا آسف ، يظهر سكتنا مش واحدة .

وإلى نقطة الصفر تعود هى وكل شىء نسبى ووارد فى دنيانا هذه وجائز ومحمد يستحيل فى تحقيق رابع تحت عنوان "الرجل الخفى" إلى حرباء تُغيِّر لونها وفقا للبيئة ورفيق يتمدد مع كل كلمة استحسان تصدر من محمد

وينفثىء كبالون انفجر عند أى نقد لأفعاله ، ونظرة تُحيى ونظرة تميت وقماط المولود فى عينين سوداوين وكفن الميت ومحمد يملك وفقا للتحقيق ، قدرة هائلة على التنكر ، وهو يستطيع أن يُغيّر فيما يُغيّر لون عينيه ويرجح أنه اختار اللون الأخضر لأنه لونه المفضل ، ومن أنا تسأل هى وإلى نقطة الصفر تعود والمرآة المشروخة تطالعها بكتلة من اللحم وخبئينى ياأمى خبئينى ، كففت عن السعى ، بالظلمة دثرينى ، ورفيق نقيضى فى كل شىء نقيضى ، لا تكف هى تقول ، وكأن هذا التناقض يمنحها الهوية والتعريف ونور بطارية مسلط على عينيها وجسدها بلا رغبة يتلوى ، وتحت عنوان "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها" يُنشر تحقيق عن محمد تحت صورة مغنية تكشف للمصور عن صدرها ، ولعب يلعب فهو لاعب أبلغ تعريف للسلوك المطلوب ، فى البيت القديم أم فى كل مكان ؟ وماذا لو لم أستطع ؟ سؤال غير وارد والطريق الذى جمعها بمحمد يصبح طريقين وحادثة الهروب تعتبر سابقة خطيرة ومثيرة أيضا ، سابقة تنطوى على تحدٍ للأمن والنظام وعلى تشجيع وقح لمن مازال فى حاجة إلى التشجيع ورفيق يقول لمحمد وهما جالسان حول المائدة :

- بشرفك أنا مدوّخ البوليس السبع دوخات .

والكاتب يؤكد سابق تحذيره للحكومة فى عدد كذا فى الصفحة كذا بتاريخ كذا بخطورة اهتزاز ميزان العدالة ، ولكن لا الحكومة اتعظت ولا رفيق كف عن التفاخر والكاتب يسجد حمدا لله على ما أعطاه من قدرة على كشف حجب المستقبل وينوح على عمى الحكومة التى لم تستفد من قدرته الخارقة هذه ويختتم التحقيق بمجموعة من علامات الاستفهام والتعجب والنقط وإلى نقطة الصفر تعود هى والحلقة تضيق وماذا ولماذا لا تجد جوابا وقماط المولود فى عينين سوداوين وكفن الميت وسؤال من أنا يلح دون جواب على الخاطر والحب الذى هو أقوى من الزمن فيما يبدو مطلقا ابتدعته هى وعبدته .

واستقرت عينا سامية على رفيق وهو يجلس هو ومحمد حول المائدة يتبادلان الحديث ، وأقرت بأن نقيض الشىء هو شبيهه : رفيق يقتحم بعدوانيته وهى تتسلل بعذوبتها ، ونظرة تُحيى ونظرة تميت ومحمد ليس فى

واقع الأمر فى حاجة لأيهما .

وعاودت سامية القراءة وتوقفت عند سطور تقول : هذا وقد توصلت النيابة إلى أدلة تكشف عن الغموض الذى اكتنف الحادث وإن احتفظت بسرية هذه الأدلة حرصا على صالح التحقيق ، واعتدلت فى جلستها وسمعت أحشاء الأريكة المعدنية تئن وهى ترتطم بالأرض . ضاقت الحلقة ، لا وقت لابد أن تسرع ، أن تبدأ ، أن تصل ، إلى ماذا ؟ للمرأة راكعة على قدميها ملطخة بالطين تنظم أوراقا لا تنتظم ؟ لقبض الريح ونظرة خاوية فى العينين وتعقيدة على الجبين وأرجو أن تفهمى الوضع ؟ من أى مادة هلامية صنعت ؟ ألا تستطيع أن تقف على قدميها مستغنية كما يقف الناس ؟ وهل حبها لمحمد حب الند للند أم ضياع فى الآخر وفقد للذات ؟ وهل يتأتى لها يوما أن تستعيد بالحب ما فقدت فى الحب .. أن تتحرك بإرادتها ، أن تفعل أن تكون غنية مستغنية ؟! ومحمد لا يبرأ من تفاؤله يقطع بأن كل إنسان يمتلك ثروة عليه أن يكتشفها وإذ ذاك سيجد قوة لا عهد له بها ، والحلقة تضيق ولا وقت وصاحب البيت موجود هو ورفيق ، وعيون من البرج لا تغفل ولا تنام وقبض الريح ، ومحمد يدس فى يدها وهى على باب الحمام شيئا لا تعرف ماهيته والملابس التى ترتديها لم تعد تصلح على الإطلاق فهل تواتيها القدرة على التغيرّ ؟ أنا العروسة قالت ، فهل تستطيع فى يوم من الأيام ، مكتفية ومستغنية ، أن تجعل صاحب البيت يلعب لعبتها ؟ وتمتمت سامية : ربى امنحنى القدرة على أن أجمع أشلائى ، ربى لا تبتلنى بالتجربة قبل أن أجمع أشلائى وقال رفيق وهو يستند إلى مؤخرة مقعده :

ـ أنا ؟ ولا الجن الأحمر يعرفنى ، تعرفنى إنت ؟ أنا مين ؟ جاى منين ؟.

وأضاف ضاحكا وهو يتأرجح على مقعده :

ـ دا أنا شخصيا ما اعرفش أنا مين .

وتعلقت نظرة سامية بوجه رفيق .. وأنت أيضا ؟ رفيق فايق سامح محمود حسين بقدر ما أنا زاهية والعروس وقبض الريح بين يدىّ ؟ هل أنت أيضا عدم ؟ وهل ردت لك المرآة صورتك كتلة مشوهة من اللحم تضيع ملامحها فى العتمة ؟ وماذا أنت صانع إن ابتلتك التجربة ولم تعد المرايا ترد لك صورتك ؟ ووجدت سامية نفسها تعتدل فجأة وتناول رفيق الجريدة مشيرة إلى السطور التى استرعت انتباهها ، وراقبت سامية رفيق يقرأ والصفار يدب إلى فتحتى أنفه .. وأنت أيضا ..؟ ليساعدك الله يوم يطالبون

بك كما أنت على حقيقتك يوم تواجه نفسك تسأل من أنا فى المصيدة تتخبط من أنا ؟ وقال محمد فى انزعاج خفيف :

ـ فيه إيه ؟

وقال رفيق :

ـ حايكون إيه يعنى ؟ الكليشيه إياه .

وطوى محمد الجريدة بعد أن تصفحها وقال هو يلقى بنظرة قلق إلى سامية :

ـ على العموم ضرورى نكون مستعدين لكل الاحتمالات .

وأشاح رفيق بيده مستبعدا لما جاء فى الجريدة وأصر محمد على أن الاحتراس ضرورى وربت على كتف رفيق . وتطلعت سامية إلى رفيق وقد دبت الحياة فى وجهه من جديد ، وأنت أيضا ؟ ليساعدك الله يوم لا تعود تنتظر شيئا ، حيث لا تستطيع أن تثبت شيئا ، فى المصيدة حيث المرايا عمياء لا ترد إليك صورتك منتشيا والحيطان صماء لا ترد إليك صوتك منتصرا . وقال رفيق لمحمد :

ـ المهم الواحد يبدأ بالهجوم ، ينقض هو ماينتظرش ، يروح للخطر لغاية عنده ، يلبد له وكل حتة فى جسمه بتتنطط ومرة واحدة ينقض ، فى ضربة واحدة يمسح اللى قدامه وزى الصقر يطير .

وارتجفت شفتا سامية .. ليساعدك الله حيث الطريق مسدود ولا تستطيع أن تمتطى الخوف وتقول أنا ، حيث لا تنتظر شيئا ، حيث المرايا عمياء والحيطان صماء ، فى المصيدة حيث تتخبط فى خواء تسأل من أنا ؟ ليساعدك الله ويساعدنى ، ضاقت الحلقة .

الفصل الثامن

ـ محمد .. إنت لسه بتحبنى ؟

سألت سامية متوجسة وهى جالسة على طرف السرير ومحمد يقف إلى جانبها وبددت ضحكة محمد توجسها ، يقول وهو يجلس إلى جانبها يطوقها :

ـ وده سؤال يتسأل ؟ طبعا ياسامية بحبك .. عندك شك فى كده ؟.

وأشاحت سامية بوجهها بعيدا وقال محمد هامسا :

ـ أسباب القلق هنا كتيرة ياسامية ، أرجوك ما تزودهاشى سبب من غير داعى .

وقالت سامية فى احتجاج وهى تمر بأصبعها على وجنته :

ـ ولكن أنت متغير خالص يامحمد .

ـ طبيعى ، وإنت كمان .

وفى استنكار قالت سامية :

ـ أنا ؟.

وقالت لأمها محمد معى فى غيبته وانثنت تنتشل صورته من عدم ، وعلى مر الأيام اكتسب صوت أمها وهى تلح عليها بالعودة إلى البيت القديم الفاعلية التى أعوزته فى البداية . وقال محمد :

ـ أيوه إنت ياسامية . مكسوفة كأننا لسه بنبتدى ، مستغربة ومُحرجه .

وأضاف :

ـ ده سنة وأكثر ياسامية والوضع هنا كمان صعب .

وتمتمت سامية :

ـ صاحب البيت ورفيق ..

وقال محمد :

ـ الأشياء ما تتحسبشى كده ياسامية ، ضرورى نضع الجانب الإيجابى فى الحساب ، الخروج من السجن ، الحرية ، القدرة على الفعل ، حقيقة إننا عايشين ونقدر نبتدى بدايات جديدة ونتجاوز أوضاع جديدة .

وأقرت سامية أن عليها أن تبدأ بداية جديدة ، وتساءلت إن كان الوقت سيسعفها والوضع ، والأشياء نسبية وما من وضع أمثل فى دنيانا هذه ، وعليها أن تحاول وأن تصل رغم الوضع الصعب .

ومدت سامية يدا مرتجفة تمسح على شعر محمد ، لابد أن تتصرف وبسرعة ، أن تتعرف ، تتعرف على من ؟ على نفسها ، على زوجها ؟ حسبت أنها عرفته بحيث تكمل الجملة التى بدأها وتسبقه فى الاتجاه الذى يستدير إليه ، ولكن هل عرفته حقا أم توهمت أنها عرفته ؟ وإن كانت قد عرفته فلم يتحتم عليها ان تبدأ من جديد . لا شىء يستقر على حال . أتكون الحياة سلسلة من البدايات والتجاوزات والبدايات من جديد ؟ لابد ان تبدأ من جديد قبل أن .. المصعد يوشك أن يصل إلى غايته ورغبتها لم تتحقق ، ربما لن تتحقق أبدا وتوهج وجهها وهى تقول : إنت عارف من أول ما شفتك ونفسى أعمل إيه ؟ وكانا قد انفردا لأول مرة . واندفع الدم إلى رقبة محمد وغامت عيناه وجذبها نحوه يحتضنها ، وتراجعت إلى الخلف وهى تضحك ضحكات قصيرة متقطعة .. لم يكن هذا ما أرادت فى هذه اللحظة بالذات ، الدور الثالث الرابع ، لم يتبق إلا الخامس والأخير .. ومدت يدا عمياء تتخبط واستقرت أصابعها على طرف أذنه الناعمة الدقيقة ، وارتخى جسدها المشدود وارتدت إلى حائط المصعد تتنهد فى ارتياح وقال فى سخرية : خلاص ؟ وأومأت برأسها فى رضا دون أن تتكلم . وانفجر ضاحكا وهما يخرجان من باب المصعد إلى المطعم حيث صحبها لتناول العشاء . وعرفت بعدها قبلاته وضمانه المختلسة والمطمئنة وارتادت معه دروبا من السعادة والتعاسة ولكنه لم يعرف أبدا أن شيئا ما لم يكتمل لها على نفس الصورة التى اكتملت بها اللحظة التى سخر منها ، لحظة يتحسس الإنسان الإنسان يتعرف عليه ومن خلاله تكتمل معرفته بالوجود بأكمله ، لحظة مدت يدا عمياء استردت بصيرتها على أذنه . وسارت الى جانبه تعرفه كما لم تعرفه من قبل ، وركز الناس نظرهم عليها وهى تسير إلى



مائدة خالية فى آخر المطعم ، وركزوه عليها وهى تجلس ، وقال محمد يومها لأنها جميلة ، ولم يدرك ولم تدرك أنها أوقفت الزمن ليلتها واحتضنت اللحظة بين جفنيها ، لحظة السعادة الخالصة والمعرفة اللانهائية . جلست غافلة لا تدرك أن اللحظة لن تلبث أن تزول ولن تتكرر على نفس الصورة أبدا ، لحظة يصرخ الطفل الوليد صرخته المجلوة وهو يتعرف على الحياة لأول مرة .

ذَكرتْ سامية محمد بتلك اللحظة ووجف قلبها والخواء يرتسم فى عينيه لحظة .. أرجوك ياحبيبى لا تضيِّعنى ، لا تذرونى حفنة من الرماد ، ابق على كيانى . أنا من أنا لأنك تعرفنى وإلا خبرنى من أنا ؟ اسم ، جسد بلا روح بلا أعماق بلا جذور ؟ ومدت يدا ترتجف إلى ذراعه وتعلقت عيناها بعينيه فى ابتهال : لم أعد بلهاء ياحبيبى ، أنا الآن أعرف أن الحياة طاحون يطحن أجمل ما فينا ، منخل ينخل كل دقيق ورقيق ولا يبقى إلا الحصا . فهل ضاع كيانى فيما ضاع ؟ كان اليوم الأول الذى ننفرد فيه أنا وأنت ، شهور ونحن فى دائرة مفرغة ندور تعرف وأعرف وعيناى متربصتان بعينيك تسومانك العذاب : إلى متى الصمت ؟ أكتب علينا دائما أن نتخبط فى حوائط من الصمت ؟

وانعكست الذكرى فى عينى محمد شاحبة بلا ملامح ، وفى صعوبة وفى ألم ، وهو يصارع أمواجا من النسيان ، وبدأت تستكمل ملامحها . وأغرورقت عينا سامية بالدموع ومالت تقبل يد محمد وارتخى جسدها المشدود وزالت غربتها ومال محمد على وجهها يرفعه إليه برقة متناهية والتقت عينا سامية بعينى محمد .. ماضٍ لم يذهب هباءً ياحبيبى ، جذورى فى الأرض ، بعد قليل سأعرفك كما لم أعرِفك من قبل ، سأعرف نفسى كما لم أعرفها من قبل ، بعد قليل ستميل بفمك على عينىّ ، تبدأ باليسرى ثم اليمنى ، جفناى لن يخطئا مس شفتيك ولا ذراعاى رجفة يدك ولا صدرى نبضة قلبك ، بعد قليل بعد قليل سنصبح ذلك الإنسان الفريد نحن .. لن تلبث وحدتى أن تنكسر وحدتى انكسر .. وتصلب جسد محمد واعتدلت سامية وقد عراها دوار وكأنها تتطلع إلى أسفل من مكان شاهق الارتفاع . سمعا خطوات تدب على السلم ، وطرق الطارق الباب ولما لم يتلق جوابا انسحب .

وعادت سامية تتمدد إلى جانب محمد فى السرير .. لا وقت ليتعرف الإنسان على الإنسان ، لا وقت لكى تنمو الأشياء . ربما كتب على الإنسان فى هذه الدنيا أن يقف بوجهه متجها إلى الحائط وظهره مكشوفا ، ربما كان هذا هو وضعه الطبيعى الذى لا بديل له وما عليه سوى أن يتقبله والأشياء نسبية وما من وضع أمثل فى دنيانا هذه ، وربما لا داعى هنا لكى تنمو الأشياء لا داعى سوى للنسيان ، لابد أن تغرق فى النسيان الإنسانة الأخرى التى انفصلت عنها متوترة تعد الخطوات . وقبلت سامية محمد وبادلها القبلات ولكن شيئا ما كان قد انقطع . ودفنت سامية رأسها فى صدر محمد معتذرة .. أنا واعية ولا أشعر بك .. أذناى تنصتان ولا أسمعك ، عيناى مفتوحتان ولا أراك ، أين أنت ياحبيبى ؟ أين أنا ؟ لا ، لا أستطيع أن أنسى ، ضمنى إلى صدرك ياحبيبى ضمنى ، أغرق وعيى فى النسيان ، بمخدرات قوية خدرنى ، فى متاهات الضياع قدنى ، ما هكذا أردتك ولا أردتنى .. لكى نحب لابد أن ننسى ، أن نضيع .. لم تعد أمامنا سوى لحظات الضياع .

وتشبثت سامية بمحمد فى جنون وتعكرت عيناها بارزتين إلى الخارج والتوت شفتاها وفقد وجهها الوسيم وسامته وهى تنحدر إلى حالة هستيرية . وفى يأس وفى جنون حاولت أن تتصل أن تحب ، وفى يأس وجنون حاول هو الآخر . ولم تكن تحب هذه اللحظة ولم يكن بدوره يحب . كان كل منهما يستغل الآخر كأداة لينسى ، ليضيع . وقفزت سامية واقفة وطرقات صاحب البيت تتزايد على الباب .. لا وقت حتى للضياع .

وقال محمد هامسا لسامية وهى تسدل ثوبها وتسوى شعرها :

ـ ماتخافيش ، رفيق على وصول .

وانسل يختبىء فى المطبخ .



الفصل التاسع

انفرج الباب عن صاحب البيت يقف جنبا إلى جنب مع رفيق . وتنهدت سامية فى ارتياح وهى تتراجع تفسح الطريق . وجود رفيق نجدة من السماء ، انتهى دورها ، ولكن هل بدأ لينتهى ، وهل تتاح لها فقط فرصة الوقوف على قدميها ؟

ولاحق صاحب البيت سامية وهى تجلس مرتخية على الأريكة ، وقال وهو يخفى لفافة خلف ظهره .

ـ حذرى فزرى معايا إيه ؟

وتحكمت سامية فى ملامحها حتى لا تفصح عن مدى كراهيتها لصاحب البيت .. بينها وبين هذا الرجل ثأر قديم ، أى ثأر ؟ أين ومتى وبمن يذكرها وبماذا ؟ لا تعرف ولكن الأكيد أن الثأر بينهما بايت وأن الأشياء لن تكتمل حتى تسويه . وعاد صاحب البيت يقول متمتعا باللعبة :

ـ حذرى فزرى معايا إيه ؟

وتساءلت سامية متى تجعل صاحب البيت يلعب لعبتها هى وفقا للقواعد التى ترسيها هى ؟ ووجدت نفسها تلعب لعبته :

ـ مش عارفة غلب غلابى .

قالت وسمعت رفيق يقول لمحمد فى العربة :

ـ برافو .. مراتك بقت معلمة .

وأبدى صاحب البيت بعضا من الضيق لأن سامية أنهت اللعبة هكذا مبكرا . ولكن تمسك سامية بقواعد اللعبة لم يترك له مجالا للاحتجاج ومن

ثم استدار يواصل اللعبة مع رفيق الذى أجاب فى اقتضاب بأن موعد النوم قد حل ، وفتح من حيث لا يدرى أبواب جهنم . قفز صاحب البيت فى الهواء وجلبابه ينتفخ كالمنطاد يتخلص من ضحكات تلاحقت عليه ويقول :

- إنتم مابتناموش .. وأنا كمان .

وبدا رفيق متوجسا وهو يسأل عم رآه صاحب البيت وجاءه الرد شافيا مانعا :

- شايفكم . طول الليل والنهار شايفكم .

وغزا سامية خوف حيوانى مبهم المعالم تأكد لها أنه سيظل معها سالبا لمنابع الحياة مالم تسوِّ ثأرها القديم مع صاحب البيت ، ومد رفيق يده ينغز صاحب البيت فى وسطه وارتدت ذراعه إلى جانبه ثقيلة دون أن تصل . وجر مقعداً من مقاعد المائدة وجلس فى الجانب المضاد محتضنا للمسند ، وخشيت سامية أن ينخرط فى البكاء وهو يقول :

- غلب غلابى .

ولم يفعل ، اعتدل فى جلسته وأخذ يتمايل بمقعده إلى الأمام المرة بعد المرة فى مواجهة صاحب البيت وهو يتمتم :

- إخص كده .. تف كده .. صاحب البيت يعمل كده ؟.

وعاودت سامية الرغبة فى أن تترك كل شىء خلفها وتهرب ، الوضع أصبح مستحيلا ، صاحب البيت قد اكتشف وجود محمد متخفيا ففيم هذه التمثيلية التى تعذب رفيق وتعذبها ؟ والتى تصادر السؤال ما العمل الآن ؟.. ليساعدك الله ويساعدنى .. ضاقت الحلقة ، ورفيق مازال يتنغم بذات الصوت المخنوق .

- إخص كده .. تف كده .. صاحب البيت يعمل كده ؟.

وحك صاحب البيت عينيه بمؤخرة يده وهو على وشك البكاء . وانقض عليه رفيق يقول غاضبا :

- شفت إيه ؟.

- البيت بيتى وأنا حر فيه .

قال صاحب البيت بصوت فخم ضخم لا يتماشى بحال مع جسده النحيل ، وأضاف فى نهائية :
- آه ماهو الشرط نور .

وقالت سامية لصاحب البيت فى صوت معسول :
- شفت إيه ؟.

آملة أن يُكذب توجسها الذى كاد يتحول إلى يقين . وخفف تدخل سامية التوتر الذى ساد للحظة مفعما بالمخاطر بين رفيق وصاحب البيت الذى أصبح الآن أكثر إقبالا على مواصلة اللعب ، وقال وهو يهز كتفه إلى اعلى ويخفضها : وأنا مالى هيه .. وخبأ وجهه بكفيه ملمحاً الى أن ما رآه يدعو للخجل . ومال رفيق ونغز صاحب البيت فى وسطه وهو يسأل بلهجة معسولة عما رآه ، وبدأ صاحب البيت يقفز وجلبابه ينتفخ فى الهواء كالمنطاد وهو يردد متنغما :
- شفت .. شفت ..

ورفيق يصاحبه ، يميل ويعتدل كل مرة على مقعده ويقول كل مرة إيه ؟

وتوقف صاحب البيت ، وأشار إلى كل من رفيق وسامية أن يقتربا ليدلى لهما بالسر ، وحاولت سامية أن تقوم واكتشفت أن جسدها قد أصبح تحت وطأة الخوف الحيوانى المبهم المعالم هلاميا بلا قوام وارتدت إلى جلستها . وتجاهل صاحب البيت محاولات رفيق لاحتكار انتباهه واستمر يطلب من سامية الاقتراب منه وجذب رفيق سامية وهو يصرخ فارغ الصبر :
- خلصينا .

وكاد رفيق ينطرح أرضا وسامية تلقى عليه بكل ثقلها وصرخ وهو يستعيد توازنه يسأل عما جرى ، وسامية مستندة إليه تخطو خطوات طفلة تتعلم المشى . واستندت سامية إلى المائدة بظهرها واختنق صوت رفيق بالبكاء يتنغم كطفل يلعب .
- أهى جت .. أهى جت ..

ومرق صاحب البيت من بينهما ووضع اللفة التى كان يخفيها خلف ظهره على المائدة خلف سامية وعاد يضع يدا على كتف سامية وأخرى على كتف رفيق وهو يقول فى اختصار .

ـ شفت كل حاجة :

وكز على أسنانه ورأسه ينكمش حتى كاد يغيب فى كتفيه وأضاف مشيرا إلى كليهما :

ـ إنت وهو مش ..

واستندت سامية بذراعيها إلى المائدة وهى توليها ظهرها . والتزم رفيق الصمت هذه المرة ، وأضاف صاحب البيت .

ـ إنت وهو مش بتناموا .

وتوترت يد فايق على مسند المقعد وبدا كما لو كان على وشك أن يرفعه ويحطم به رأس صاحب البيت وبدلا من أن يفعل انهار على المقعد جالسا يولى صاحب البيت وسامية ظهره ويواجه المطبخ .

وتقدم صاحب البيت من سامية وهى مستندة بظهرها ، وذراعاها مقوستان على المائدة وكاد يلاصقها وانحرفت سامية إلى الوراء لتتحاشاه وانحرف معها ، وانحرفت يمينا وانحرف يحاورها . وأدركت سامية أن اللعبة هذه المرة فوق طاقتها وودت أن تهرب بعيدا ، وشلها هذا الخوف الحيوانى مبهم المعالم .

وأحنى صاحب البيت ركبتيه وهو يتطلع إلى المائدة من خلال ذراعى سامية ، وأشرق وجهه وهو يعتدل فى جلسته على ركبتيه يقترب من ذراع سامية الأيمن ويمد يده حتى يكاد يمسه ثم يسحبها ، وفجأة دس يده بين خصر سامية وذراعها الأيمن المقوس والتقط اللفة التى تركها على المائدة ، ومضى يهرول فى اتجاه المطبخ حيث اختفى محمد .

وبلا وعى وجدت سامية نفسها تقفز فى خفة خلف صاحب البيت تجذبه من الخلف من جلبابه وتحكم قبضتها حتى ينطرح أرضا .

ودوى صوت انفجار صاخب وصاحب البيت ينطرح أرضا . وتناثرت قطع زجاج فى الحجرة وسمعت سامية قبل أن تغيب عن الوعى صاحب البيت ينوح :

- اللمبة .. لمبة المطبخ انكسرت .



الفصل العاشر

أقرت سامية وقد افاقت من غشيتها أن الإغماء كان وسيلتها للهرب من موقف أكبر من قدرتها على التحمل ، ووجدت نفسها ممددة وعلى طرف السرير يجلس محمد وعلى الأريكة يجلس رفيق يدخن مقطب الجبين . وصاحب البيت غير موجود ، أهو حقا غير موجود أم هو يسكنها متلفحا بهذا الخوف الحيوانى مبهم المعالم الذى يقهرها ويتركها بلا رغبة سوى الرغبة فى الفرار ؟ وأرادت سامية أن تعرف ماذا حدث بعد أن أغمى عليها ، وهل أثارت شك صاحب البيت حين طرحته أرضا وجاءها الجواب من رفيق :

- طبعا لخبطت كل حاجه ، ومن غير أى داعٍ .

قال قبل أن ينهيه محمد عن إكمال ما بدأ ، ويوصى سامية بالتزام الراحة ومحاولة الاستغراق فى النوم ويكفيها أن تعرف أن كل شىء سار على مايرام .. وأصرت سامية على أن تتبين معنى قول رفيق أن ما تم من جانبها تم بلا داعٍ على الإطلاق وقال محمد إنها بالغت فى القلق بلا داعٍ فهو لم يكن موجودا أصلا فى المطبخ لحظة اندفع إليه صاحب البيت . وقفزت سامية جالسة تسأله كيف ؟ وقال محمد إنه تكهن بلحظة الخطر وقفز إلى الحديقة وأغلق الشيش وتسلق عائدا بعد انصراف صاحب البيت ، وفقا لخطة سبق الاتفاق عليها مع رفيق . واستوقفت هذه التفصيلة الأخيرة سامية وتساءلت لماذا أنا هنا ؟ وودت أن تصفع محمد ومن بعده رفيق وتمددت على السرير مولية الاثنين ظهرها .. أى خطر كان من الممكن أن يجنباها أى خطر ! والدم ينسحب من ساقيها وذراعيها مؤذنا بالموت أو على أقل تقدير بالشلل ؟ لو عرفت مسبقا أن لمحمد ملجأ يلجأ إليه عند

الضرورة لوجدت الوضع محتملا ، ولتعاملت معه بعقلانية كما يفعل بقية الناس . لو عرفت ما طرحت صاحب البيت أرضا مثيرة لغضبه وشكوكه ولما اغمى عليها أصلا . كل شيء هنا ، كل تخطيط وتدبير ، يتم في استبعاد كامل لها وفي استغناء كامل عنها ، فما الذي يبقيها في هذا المكان ؟ ولماذا يحجبان عنها عن عمد المعرفة ؟ أهو إشفاق عليها أم استهانة بها أم إيمان بأنها إن عرفت كفيلة بإفساد كل شيء . منذ بداية الرحلة لم تشاطرهما هي شيئا ، سوى الخوف طبعا ، ولا حتى الخوف . ضاعف الجهل بمجريات الأمور خوفها ، ودفعها إلى سلسة مجنونة من الأفعال تكرس الخطر بدلا من ان تقلل من احتمالاته . أحدث هذا لأنها لا تعرف أم لأنها لا تستطيع الوقوف على قدميها ؟ اندفاعها المجنون على سلم بيتها توقعا للإفراج ولا إفراج ، اندفاعها المجنون من هذا المكان لتعود بمحمد وصاحب البيت والبيرة ، الليلة مزاج ، وليلة في العراء ولولا المصادفة ، قال رفيق ، لأفسدت كل شيء . وجودها هنا يشكل عبئا لا عونا فما الذي يبقيها في هذا المكان ؟.

وجلست سامية على السرير تأكل وعينا محمد ترقبانها في إلحاح وعينا رفيق وحاولت أن تركز على يدها وهي ترتفع بالطعام وتنخفض وقطع البيض المسلوقة الصغيرة تنزل إلى معدتها كما لو كانت قد ابتلعت البيضة سليمة وأربعة عيون من خلف المائدة مسلطة في صمت عليها وبندول الساعة يتحرك في رتابة جيئة وذهابا يكسر الصمت المخيم على المكان . ونحت سامية صينية الطعام جانبا دون ان تكمل .

وخرجت من الحمام بعد ان اغتسلت وارتدت ملابسها . ووقفت في الصالة لحظة مترددة واقترح عليها محمد أن تستريح وانسلت تحت الغطاء دون أن تتكلم وأمها على عادتها تسأل عبر التليفون : ماذا تنتظرين وحيدة ؟ وهي على غير عادتها تتمتم ولا حاجة ، ولا حاجة خالص ، وتسدل الملاءة البيضاء على رأسها ، وشعرت سامية بعينيها تصطليان كجمرة نار داخل مقلتيها والقطار يردد ، خلاص خلاص ، وأدركت أنها لن تبكي إلا في نهاية الرحلة . فعندما تصل إلى البيت القديم ستنطرح في بئر السلم أرضا

تبكى ، تُشيع بكاءها كالنعيق صرخات نسوة يلبسن السواد . وتململت سامية فى نومها وهى تتساءل ، لم كانت نسوة البيت القديم دائما فى حالة حداد ؟ وقال محمد :

ـ إنت صاحية ياسامية ؟

ولم ترد سامية وبدأت تشعر بوجود محمد ورفيق شعورا حادا مرهقاً وأنصتت لعلهما يتكلمان . وساد صمت ثقيل محمل باتهامات يتذبذب بها الهواء على وشك أن تتشكل ولا تتشكل واستدارت سامية تولى محمد ورفيق ظهرها ، وتبعتها عيونهما حيث استدارت تدينها ، بالصمت تدمغها ، لو تكلما لعرفت ماهية جريمتها ولتحددت على الأقل ملامحها .. هل فى أنها ضعفت ، خابت ، أحبت محمد ، تزوجته ، أم لأنها خلقت على وجه الإطلاق ؟ ولكنهما لا يتكلمان ، لا يقطع الصمت إلا رفيف بندول الساعة جيئة وذهابا مرة بعد مرة كقطرات الماء تذيب الحجر ، وحكة عود كبريت بالعلبة كلما أشعل رفيق سيجارة .. كل شىء أهون عليها من هذا الصمت ، أكتب عليها دائما ان تتخبط فى حوائط من الصمت ؟ عليها أن تتظاهر بالنوم الآن وفى الحال . وارتجفت سامية وهى تتصور ما سوف تسمعه لو تظاهرت بالنوم ، رفيق سينطلق لا شك فى هذا ، ينظر بطرف عينيه إلى محمد ويقول :

ـ كان مالك إنت ومال الجوازة دى ؟ والغريبة ياأخى إن كل زملائك حذروك . طول عمرها حتفضل عبء عليك .

وسيرد محمد ويقول :

ـ أنا كنت فاكر إنها فى يوم من الأيام حاتقدر تقف على رجليها .

ويسارع رفيق ويقول :

ـ الميت ما يقدرش يقف على رجليه .

لا رفيق لن يقول هذا ، رفيق محروم من الخيال ، وهو لن يشعر بهذه الحقيقة إلا عندما يمر بتجربة مماثلة لا قبل ذلك ، ربما قال هذا محمد ، مستحيل ، محمد لا يبرأ من التفاؤل ، الإنسان وفقا لرأيه لا يموت إلا حين يتوقف قلبه عن النبض ، محمد سيرتخى ويقول حكمته المعهودة : كل واحد

عنده ثروة إذا بحث فى أعماقه فى اللحظة المناسبة يجدها كما لم يحلم بوجودها قط . وافتح ياسمسم وينفتح باب كنز محمد ، هل تتفتح هى عن كنزها قط ، ومتى ؟ ما أقل ما يعرفه هذا الرجل وما أقل ما يفهمه ؟ ورأت سامية محمد يجلس مرتخيا كعادته وكأن شعلة لا تخبو فى أعماقه ترسل باللمعة إلى عينيه الناعمتين كعينى شاعر ، وبالومضة إلى شفتيه القويتين كشفتى مصارع ، رأته يجلس متصالحا مع نفسه ، مكتفيا متكاملا فى استغناء عن الآخرين . ما الذى تعنيه هى بالنسبة إليه ؟ بل حتى ما الذى يعنيه رفيق لرجل مكتف بذاته لا تنضب موارده ؟ وكرهت سامية فى محمد هذا الكل المتكامل الذى توهمت يوما أنها نفذت إليه .. لو كان ضعيفا ، أى آفاق كان من الممكن أن ترتفع إليها لو اشتدت حاجته إليها ؟ أى آفاق حرمها منها هذا الرجل بهذه اللمعة فى عينيه وهذا البريق فى شفتيه ! لو بكى على صدرها لخبأت رأسه فى ليل شعرها وأوقفت تنفسها خوفا من أن يزعجه تردده . ولكنه لا يضعف ويدعى أنه يفهم وينظر إليها هذه النظرة التى تقودها إلى الجنون ، نظرة عارفة بلا معرفة ، مدركة بلا إدراك . الأقوياء لا يفهمون الضعفاء . رفيق يفهمها أكثر مما يفهمها محمد ، رفيق أقرب إليها منه ونظرة تحيى ونظرة تميت وقماط المولود فى عينين سوداوين وكفن الميت والأرض تحت القدم تغور بلا سبب ، تغور . وهى لم تقصر فى شىء . فعلت الممكن والمستحيل ، اعتصرت كيانها إلى آخر قطرة حتى لم يتبق سوى النفاية ورفيق يقول :

ـ أنا عارف الصنف ده من الستات ، الواحدة زى العلقة تفضل تمص فى دم البنى آدم لغاية ما تخلص عليه .

وارتجفت سامية بالغيظ وكأن رفيق قد نطق بهذه الكلمات فعلا . وقفزت واقفة واندفعت تزيح المزلاج الداخلى عن باب الشقة ، وقفز محمد واقفا يلحق بها وصاح رفيق محذرا ، وأسندت سامية وجهها إلى الباب وهى تقول :

ـ أنا حاتخنق هنا .

وأضافت ومحمد يربت على كتفها والوهن يتسلل إلى صوتها :



ـ ماهو كمان مش معقول كل الدخان ده فى الأودة .

وفتح رفيق زجاج النافذة وهو يقول :

ـ أما نشوف آخرتها إيه ؟

وجاءت جملة رفيق هذه كإشارة بدء واستدارت سامية متقطعة الأنفاس محمومة تواجه رفيق :

ـ أيوه كده ، انطق ، اشتم قول اللى إنت نفسك فيه من الصبح .

ـ بس وصلنا ، استعد ياأستاذ داخلين على دور هستيريا معتبر .

قال رفيق منزعجا وتقدم محمد يطوق سامية بذراعه فى محاولة لتهدئتها وقد أدرك أنها تقف على حافة انفجار قد يودى بهم جميعا إن وصلت اصداؤه لصاحب البيت . وأفلتت سامية من ضمة محمد فى عنف واستدارت تواجهه :

ـ وانت كمان ما بتتكلمش ليه ؟ ولا خلاص الإنسانية قتلاك ؟.

وقال رفيق :

ـ قلم يامحمد .. مش حينفعها إلا قلم .

وارتفع صوت سامية واختلطت الكلمات وانفاسها تتسارع وهى تقول لمحمد :

ـ قول إنك ما بتحبنيش ، إنى حمل ثقيل عليك ، قول إن جوازنا كان غلط .

وقال محمد منبها :

ـ الصوت ياسامية ، أرجوك ، إمسكى نفسك شوية عشان خاطرى .

وعاد رفيق يكرر :

ـ قلم يامحمد قلم .

وسامية تهدر خارجة من الوعى وضحكاتها الهستيرية تقطع كلماتها :

ـ كنت فاكرة إنى باعطيك اللى ما حدش عطاه للتانى وإنت طول الوقت مش عايز ، مستغنى ، قول إنى عبء عليك ، علقة بتمص فى دمك .

وقال رفيق :

ـ بعد شوية حتصرخ بالصوت وتلم علينا الحته .

ودفن محمد رأس سامية فى صدره وأفلتت من جديد وهى تتطلع مبهورة إلى رفيق وكأنما نسيت وجوده . وتقدمت تواجهه في خطوات قصيرة ووجهها يتألق بفرح وحشى .

ـ علقة بتمص الدم ، علقة . زيك تمام يارفيق .

وأسندت سامية يدها إلى بطنها تُسكن من الضحكات التى توالت عليها ، وانقلبت الضحكات إلى أنات واستطالت الأنات ومد رفيق يده ، وصرخ محمد محذرا ، واستقرت صفعة رفيق على خد سامية . واحتلت عينيها نظرة ذهول وانسحب الدم من وجهها لحظة ثم اصطبغ بالحمار وهى تتحسس موقع الصفعة . وأزاح محمد رفيق الذى بدا مبهوتا ، ودفن وجه سامية فى صدره وسادت لحظة صمت رفعت بعدها سامية وجهها مخضبا بالدموع تقول لمحمد فى هدوء وكبرياء

ـ أنا عايزة أروّح .

وأدركت سامية فى ذات اللحظة أنها لأول مرة منذ التقت بمحمد تعبر عن رغبة غير رغبته ، رغبتها هى الخاصة والشخصية . وقال محمد وهو يدرك نهائية القرار :

ـ بكره الصبح .

الفصل الحادى عشر

حاول رفيق أن يعقد الأمور وبدا كما لو كان متشبثا بوجود سامية ، غياب سامية سيثير شك صاحب البيت ، وإن ثار الشك ضاع كل شىء ، وهو لا يستطيع أن يترك محمد وحيدا ويخرج ، قد يقتحم صاحب البيت المكان فى غيبته وهو لا يستطيع بحال أن ينحبس مع محمد فأمامه ماهو أهم بالخارج ثم أنه لم ينقلب بعد إلى امرأة . وكاد رفيق يصل إلى حالة هستيرية وهو يعيد ويكرر أن من الضرورى له أن يتحرك ، ان يفعل ، أن ينقض ، أن يهاجم ، والموت أهون عليه من انتظار عاجز ومشلول وخاصة فى هذا المكان الضيق المقفول الذى يختنق به فعلا .

وسوى محمد الأمور كعهده ، ما أيسر ما يسوى الأمور ! صاحب البيت لن يتشكك فى شىء ، أم سامية مريضة فى البلد وذهبت تعودها ، ومرض الأم قد يطول ، وخطر اقتحام صاحب البيت للمكان خطر قائم سواء أكانت موجودة أو غير موجودة . وقد سبق وتنبها لهذه الحقيقة حين أضافا القفل الخارجى ، ورفيق لن ينحبس فى البيت ولا داعى لأن يفعل . يقفل القفل خلفه ويتنبه عندما يعود من الخارج للإشارة المتفق عليها - يتراجع إذا لمح من الشارع شيش المطبخ مواربا . والوضع مؤقت فهما يستطيعان دائما أن يلجآ إلى الأصدقاء فى إيجاد مكان جديد وخطة جديدة ، والوضع المؤقت لن يكون مثاليا ولكنه على ماهو عليه ليس بالمثالى أيضا .

وتنهدت سامية فى ارتياح وقد تقرر موضوع عودتها ولم تعر إشارة محمد الأخيرة ولا نظرة رفيق المتعالية أدنى اهتمام . منذ اللحظة التى عبرت فيها عن رغبتها الخاصة فى مغادرة هذا المكان ، انطوت على نفسها تحتضن خوفها ، لا شىء خارجيا يمسها أو يصل إليها وكامرأة حبلى يستوعبها تماما ذلك الشىء الذى يكبر داخلها ويتمدد انكفأت تتحسس

خوفها فى همسات فى خطوات فى ضحكات خشنة لا تبين ، وتراه فى عيون لا تغفل ولا تنام تلمع كالخرز فى الأرض والسماء ، داخل وخارج البيت ، فى قلبها مغروسة . وتنهدت سامية فى ارتياح وهى تدرك أن هذا الوضع لن يطول . فى بئر سلم البيت القديم ستغمض عينيها وتغيب عن الوجود . وقال محمد :

- أظن ننام بقى ، بقينا وش الفجر .

ولم يتلق محمد ردا لا من سامية ولا من رفيق الذى تمدد على الأريكة موليا وجهه إلى ظهرها فى وضع النوم ، ودعا محمد سامية إلى السرير وأسقطت فى رقة ذراعيه ، ومال محمد نحو سامية وهى تجلس إلى المائدة ، يرفع وجهها ويقبلها فى عينيها اليسرى أولا ثم اليمنى ثم تستقر شفتاه على شفتيها . واستسلمت سامية لقبلة محمد بشفتين جافتين ونظر إليها بحزن ثم أشاح بوجهه واتجه إلى السرير .

واستغرق محمد فى النوم بمجرد أن وضع رأسه على الوسادة ، وتململ رفيق فترة فى نومه ولما لم يجد وضعا يسلمه إلى النوم ، إستلقى على ظهره مادا قدميه فوق مسند الأريكة . وأخرج ولاعته وقذف بها فى ضيق على الأرض بعد أن خذلته ومد يده إلى صندوق كبريت على طرف المائدة وأشعل سيجارته . وساد صمت طويل وحلقات الدخان تتجمع لتتبدد وقال رفيق فى صوت هامس :

- ساميه .

وأضاف :

- أنا آسف على اللى حصل امبارح .

وأدركت سامية أن رفيق يشير إلى الصفعة التى وجهها إليها بالأمس ووجدت نفسها تقول :

- كان ضرورى اللى حصل يحصل .

وأضافت وهو ينظر إليها متسائلا :

- كان ضرورى حد يفوّقنى .

- وفقت ؟

وقالت سامية دون سابق تفكير :
- قررت انى مش قد اللعبة دى .

وما إن انتهت سامية من جملتها حتى أدركت أن رفيق سيدفع بأن اللعب فى دنيانا هذه ضرورة لا اختيار وأن عليها أن تتقبل الأشياء على ماهى عليه وإلا ظلت تخبط رأسها فى الحائط حتى الموت . وسلمت بأن الموت قد يكون وسيلة للإفلات من وضع تجده مستحيلا ، وقال رفيق :
- وانسحبت .
- وانسحبت .

قالت سامية وأدركت كم هى مخيفة فى نهائيتها عملية الانسحاب هذه ، وتساءلت إن كانت جزئية أم كلية ؟ من هذا المكان أم من الدنيا بأكملها ؟ وأخافها السؤال وإن بدت عملية الانسحاب فى ذات الوقت ضرورة والخوف يتمطى داخلها وهى تختفى فى البيت القديم ، ورطوبة تلفها تكسوها طبقات فوق طبقات تحميها ، تُغيّبها عن الوجود وخبئينى ياأمى خبئينى كففت عن السعى ، والتزمت الصمت ورفيق يقول :
- مش بدرى شوية على القرار ده ؟

وألقى سيجارته على الأرض ولمحها مشتعلة واعتدل جالسا وسحقها بقدمه ، وعاد بلا داعٍ يسحقها من جديد ، ورد ساقه فى تثاقل إلى مكانها وظل فترة يتأمل ظفر أصبعه الأوسط ثم رفع رأسه وقال هامسا فى رجاء :
- ما ترجعيش البيت القديم ياسامية .

وابتسمت سامية ابتسامة واهنة وأرادت أن تخبر رفيق أن الطريق قد طال ولم تعد بها قدرة على مواصلته ووجدت نفسها تقول :
- مافيش فايدة يارفيق ، وإنت كمان مسيرك ترجع .
- أرجع ؟ أرجع فين ؟
- مطرح ما جيت حترجع .

قالت سامية وأضافت فى توكيد :
- إن ماكنش النهارده يبقى بكره .

ولم تدر من أين واتاها هذا اليقين وقال رفيق :
ـ مستحيل أرجع ياسامية .. دى السكة اللى تودى ولا تجييش .

وأضاف :
ـ أنا كبرت ياسامية ، مش عايز أموت فى حجر أمى .

والتزمت سامية الصمت وتساءلت هل أنضجته الأحداث فعلا أم هو يتوهم ؟ وقطع رفيق لحظة الصمت قائلا :
ـ إنتِ عارفه أنا عايز أموت إزاى ياسامية ؟

وتطلعت إليه واجفة وقال :
ـ فى الشارع مجروح ، وساعتها حازحف لأعلى حته وأبص للسما وأموت .

وكأنه يتشوق للحظة الموت هذه . ولم تستطع سامية أن تدارى ابتسامتها وعلت وجه رفيق رقة لم تعهدها من قبل وقال :
ـ وإنت ياسامية . عايزه تموتى إزاى ؟

وتوقفت سامية عن الضحك وهى تقول :
ـ أنا عايزة الأرض تنخسف بى ، من غير ما احس ولا حد تانى يحس إنى باموت .

وقال محمد فى سخرية وهو يجلس على طرف السرير :
ـ أظن ما عندكوش مانع نلعب لعبة تانيه ؟

وأحمر وجه رفيق وضحك ضحكة مغتصبة تطلعت سامية إلى النافذة وقالت :
ـ دا الصبح طلع .

وقامت تستعد للخروج ومرت بالمرآة المشروخة وتوقفت لحظة تتمعن فى الصورة المشوهة التى طالعتها : هذه أنا ، قالت ، وتصارع الرعب فى عينيها لحظة والفضول ، هذه أنا ، قالت ، وتصارعت الكراهية والجاذبية فى عينيها . وتقدمت تلاصق الصورة ومدت يدها تتحسسها ، تتعرف عليها ،

وابتسمت ابتسامة واهنة وفردت ذراعيها تمسك بطرفى المرآة تحتضن الصورة ، وانغرست حبات العرق فى مسام وجهها وغامت عيناها فى الم يقارب النشوة .

واستدارت سامية وتقدمت فى اتجاه الحمام رافعة الرأس غائبة فى عالمها الداخلى .

وأطفأ الماء سخونة وجهها ودست رأسها تحت الصنبور وأقفلته بعد ان ابتل شعرها ، وهى تترنم : أنا خبت ، وقطرات الماء تتساقط من شعرها المدلى فى الحوض قطرة بعد قطرة وهى لا تكف تترنم : انا خبت .. وعصرت سامية شعرها فى الحوض واعتدلت وهى تجمع شعرها إلى الخلف وتتنهد بارتياح وهى تدرك أنها فشلت ، وتكاد تنتشى بهذا الإدراك وهى ترتدى ملابس الخروج .

ووقف رفيق مستندا إلى الباب الخارجى وعيناه لا ترتخيان عن سامية تكذبان بسمة السخرية التى عادت تحتل شفتيه . وجلس محمد يتظاهر بقراءة بعض الأوراق وكوّرت سامية شعرها إلى أعلى فى مؤخرة رأسها ، ومدت يدها إلى المائدة تلتقط دبابيس الشعر ، وقال محمد فى ارتباك وهو يتحاشى النظر إليها :

- أظن تلحقى قطر تمانيه ياسامية ؟

وغرست سامية دبابيس الشعر فى رأسها دبوسا بعد دبوس فى عنف وهى تكاد تلتذ بالألم الذى ينزل بها المرة بعد المرة ، وتلفتت تبحث عن معطفها ووجدته على مسند المقعد وإلى جانبه حقيبة يدها والحقيبة الصغيرة لملابسها . وأدخلت ذراعها فى المعطف ، والتقط محمد حقيبة يدها ودس فيها عشرة جنيهات وقال :

- حتحتاجى لفلوس .

وهزت سامية رأسها تنفى حاجتها إلى نقود ورقدت حقيبة يدها على المائدة بينها وبين محمد يواجهان الواحد الآخر دون أن يتبادلا النظر ، وفجأة أمسكت سامية بحقيبة يدها وأخرجت منها الجنيهات العشرة ،

وبدأت تضرب يدها فى الحقيبة وتخرجها ، وعلى المائدة تناثرت فى فوضى أوراق مالية من فئات مختلفة . وأفرغت سامية أخيرا كيس نقودها بما فيه من عملات معدنية والتقطت من المجموعة عشرة جنيهات وبعض النقود المعدنية واعتدلت فى وقفتها . وقال رفيق وهو يتقدم نحوها :
ـ لمى فلوسك ياسامية .

ونظرت سامية إلى محمد تطلب مساندته وهى تعرف أنهما فى أمس الحاجة إلى نقود ، وتحاشى محمد نظرتها ، وتقدم رفيق نحو المائدة وقال وصوته يختنق بالغضب :
ـ لمى فلوسك أحسن لك ، وإلا أحرقهم .

وقال محمد وهو يكوِّم الأوراق النقدية على المائدة :
ـ مافيش داعى تِكبَّر الموضوع يارفيق .

وتراجع رفيق إلى الخلف وابتسم بمرارة وقال :
ـ سامية حلت المشكلة خلاص ، حتروح تغمض عينيها وتنام ، دفعت الثمن ومن الباب ده حتخرج بضمير مستريح ، دفعت الثمن وإنت قبلته يامحمد .. قبلته .

ووضع محمد يده على يد سامية قبل أن تسترد النقود واحمر وجهها وقالت :
ـ أنا .. أنا ماقصدش .

وأمسك رفيق بالأوراق النقدية التى كومها محمد ورفع قبضته بها عالية وتركها تتساقط على المائدة ورقة بعد ورقة وهو يضحك بلا فرح ويقول فى هستيرية :
ـ هو دا اللى قدرت عليه ياسامية .. محمد ما يستحقش منك إلا دول .

ومالت سامية تلتقط حقيبة يدها وحقيبة ملابسها ، وسد عليها رفيق الطريق إلى الباب وصوته متشنج يرتفع تدريجيا .
ـ عارفة مصيبتكم إيه ياسامية .. إنكم بتتكلموا كتير عن الحب ولا تعرفوش تحبوا ، ما تملكوش تعطوا حاجة .. فقرا .. فقرا .

وردت سامية :
- زيك تمام يارفيق زيك .

ولم تستطع أن تكمل وتدخل محمد ينقذ الموقف مقلدا صوت رفيق .
- قلم ياسامية ، قلم ، ما ينفعوش إلّا قلم .

وهز رفيق رأسه وابتسم وامتلأت عينا سامية بالدموع ومال محمد يقبلها وقال وذراعه تلتف حول كتفها :
- مع السلامة .. رفيق حيوصلك لغاية التاكسى .

ورفضت سامية العرض ولوّح لها محمد مودعا وهو يختفى فى المطبخ وتبعها رفيق إلى الخارج قائلا :
- أوعى ياسامية تنسى طاسة الخضة .

وأدركت سامية وهى تجرى إلى الباب الخارجى تهرب من عيون لا تغفل ولا تنام ، أن رفيق لم يكن من الممكن أن يصيبها فى مقتل مثلما أصاب . وتنهدت فى ارتياح وهى تفلت من الباب الخارجى دون أن يستوقفها صاحب البيت .. طقس الطقوس .. طقس طاسة الخضة .. لا يجرى إلا كلما عاد غائب لائذا بالبيت القديم ، وستشرب هى قطعا من طاسة الخضة لائذة برب الفلق من شر ما خلق وقد عادت لائذة إلى البيت الذى أتت منه وإليه تعود .. هذه الطاسة النحاسية الصفراء محفورة بالآيات القرآنية تكسوها من الخارج والداخل ، أثر يتوارثه الأبناء عن الاباء عن الأجداد فى سلسلة لا تنتهى والواحد بعد الآخر يلوذ برب الفلق ويتحصن فى البيت القديم من شر ما خلق . وهذا الحجر العاجى الغليظ مغضن بمر السنين ومجعد يدور بالماء فى طاسة الخضة ويدور . حجر كريم يقولون ، اى حجر ؟ من أين أتى ؟ لا أحد يعرف ولا أحد يريد أن يعرف ، تكتسب طاسة الخضة أهميتها كلما أوغلت فى الأسرار . أما الرقائق النحاسية فمثبتة بخيط إلى طرف من أطراف الطاسة النحاسية الصفراء ترن وتعاود الرنين واليد العاجية الغليظة تدور ، فتفرقها ، تتعدد الرقائق بتعدد أسماء الله الحسنى .

وارتسم المشهد مكتملا أمام سامية وهى تقف وسط دائرة من النساء يلبسن السواد ، دائما فى حالة حداد ، ماذا فقدن ؟ لا تعرف ، وفى تناقض مع السواد تجلس جدتها المقعدة على مقعدها الذهبى المكسوّ بالقطيفة الخضراء تمسك طاسة الخضة وتتمتم بآيات قرآنية وتدير الحجر الكريم والرقائق تحمل أسماء الله الحسنى ترن وتعود ترن وسط صمت كامل يربض على الحضور . تناول جدتها طاسة الخضة إلى أمها تعيد مزج السائل من جديد بالحجر الكريم تتجمع له وتتفرق أسماء الله الحسنى وتناوله إياها . تطالبها جدتها أن تشرب وبعد جدتها أمها ثم النسوة فى سواد فى صوت حزين : إشربى . وتسود لحظة تردد قصيرة وهى تود لو كسرت الطوق ثم تمضى ، ويشرب اللائذ بالبيت القديم منه أتى وإليه يعود ، يعوذ برب الفلق من شر ما خلق . وتقول جدتها للآخر وتكرر أمها الطلب ومن بعدها النسوة فى سواد فى صوت حزين ، وتشرب هى حتى ثمالة الثمالة وهى تلقى برأسها إلى الخلف . ويسود الصمت لحظة وتنحبس الأنفاس وينأى الرنين ، وتمضى الخطا بلا وقع وكأن لم تمض ، ثم ينفجر الأطفال يهللون يندفعون إليها وحولها يدورون ، يقفزون فى الهواء ويصرخون وقفزاتهم تعلو وصرخاتهم تستطيل ، وهم يرقصون حول أقفاص الجريد وقد حرقوها فجر يوم شم النسيم . وتحتضنها أمها وتبكى ، لِمَ تبكى ؟ لا تعرف وتدفن هى رأسها منهكة وممرورة فى صدر أمها تبكى بدورها ، علام تبكى ؟ لا تعرف ولكنها تشعر بأن شيئا نهائيا لا رجعة فيه قد حدث . كأنما دخلت على حد قول رفيق ، سكة الحواديت التى لا عودة منها .

الفصـل الثانى عشر



بعد نصف ساعة سيتحرك القطار وبعينين ملؤهما الحصى ستسمع عجلات القطار تردد طوال الطريق كلمة خلاص . لا لن تبكى إلا فى نهاية الرحلة . فى حضن أمها وخبئينى ياأمى كففت عن السعى ستبكى .. أنا مستعجلة ، قالت لسائق سيارة التاكسى الذى أقلها إلى المحطة وقد انطرحت على مقدمة السيارة وهى تستوقفها ، وتساءل السائق فى سخرية إن كانت تتعجل الموت واشتكى من المصائب التى تحل به على وش الصبح .

واستقرت عينا سامية لوهلة على جرائد اليوم الصباحية ترقد فى حجرها وأشاحت بوجهها بعيدا ، وتكوّرت الكلمات مخيفة على فم بائع الجرائد الأعور يطرق زجاج نافذة السيارة يقتضيها الحساب . توهمت أنها دفعت بما فيه الكفاية والجرائد ترقد فى حجرها مرتجفة ، ولكن لابد لها فيما يبدو أن تدفع من جديد . شىء ما يخيفها .. من الجرائد وما قد تحمل من أخبار ؟ من كلمات تتكوّر على فم صبى أعور تحمل النذير ؟ أم من سلوكها الأهوج وهى تندفع إلى عرض الطريق والسائق يتساءل إن كانت تتعجل الموت ؟.

ونحت سامية وهى تجلس فى ديوان القطار الجرائد إلى جانبها وأوصاها رفيق بطاسة الخضة ، وترك الأوراق النقدية تتساقط من قبضته على المائدة الورقة بعد الورقة . وتيقظ إحساس حاد بالواجب توارثته سامية أمًا عن جدة استوعب حياة كل منهما لاغيا ما عداه ، واضطرت أن تؤكد لنفسها من جديد أنها لا تصلح لشىء وأنها شكلت عبئا لا عونا وهى تجمع حبات البرد فى طبق من الصاج وأمها تصيح متلفعة من خلف زجاج النافذة : لا

فائدة ، وخبئيني ياأمي خبئيني أنا رماد أنا لا شيء أنا وحش بأربع عيون ، بالظلمة دثريني في الغفوة والنسيان اطويني ، كففت عن السعي ، لا جدوى لا جدوى ، في الظلمة سأرقد لن أقول لا وبالسواد سأتدثر ، بالهمس سأغلف صوتي حتى لا يسمع صوتي أحد . لن أرفع صوتي أبدا . بالفلين سأبطن أحذيتي وأمضي في ممرات البيت الملتوية وكأن لم أمض . لن تردد الممرات وقع خطاي . وسأنظف حجرتي وأعود أنظفها لن أكتفي .. حجرتي نظيفة وكأن أحدا لا يسكنها ، لا المرآة تعكس أنفاسي ولا وسادتي تحمل شعرة من شعري . سأغسل جسدي وكأني أغسل عني خطيئة لا تمحي وأعود أغسله لن أفرغ .. وجهي يبرق كالمرآة ويداي شاحبتان لم أعد أعرق . وألف الفوطة الخشنة على جسدي وأدعكه وارتجف الرجفة التي تبقت لي وأعود أحكمها .. لم تعد الفوطة خشنة بما فيه الكفاية لم تعد الفوطة خشنة . وعلى المائدة أرص عقودي ومساحيقي ، ممتلكاتي الغالية ممتلكاتي الناعمة ، بيدي أتحسسها على خدي أجربها وأوي إلى فراشي أحلم . ممتلكاتي تضاعفت بلا تمييز تكاثرت في الأدراج في الأركان تحت السرير . أطبقت يدي على غطاء زجاجة بأسنان مدببة وأويت إلى فراشي ، لم أعد أحلم . حلمت شبابي وكهولتي ، لم أعد أحلم . رأسي ثقيل وعيناي تفرزان الدمع بلا معنى . أحكمت يدي على غطاء زجاجة لم أعد أشعر ، في الصباح سيجدون أسنان الغطاء المدببة مغروسة في لحمي ولا أثر للدم .. الميت لا يدمى . ماتت ميتة حلوة ، ميتة المصطفين ، سيقولون ، ولن يعرفوا أبدا أنها ماتت شبابها وكهولتها في البيت القديم .

ومست سامية لسعة برد من نافذة القطار المفتوحة أرسلت رجفة خفيفة إلى جسدها ولوهلة شعرت بالامتنان لأنها حية .

رصيف المحطة مزدحم والقطار شبه مهجور من المسافرين . في اللحظة الأخيرة سيهرعون من آخر الرصيف متقطعي الأنفاس يلقون بحقائبهم من النوافذ وكأن حياتهم تتوقف على أن يلحقوا بالقطار .. ويرن الجرس وتدور العجلات واشربي ستقول جدتها ومن بعد جدتها أمها وبقية

النسوة فى صوت حزين ، وشىء ما يحمل النذير فى الجرائد ، ترقد إلى جانبها وهى صبحا تفلت من زقاق مسدود إلى زقاق مسدود تصل دون أن تعى أنها وصلت إلى الشارع الرئيسى .

والتقطت سامية جريدة من الجرائد ومضت تقلبها فى حذر صفحة بعد صفحة تنظر بطرف عينيها راغبة فى أن تقرأ خائفة مما عسى أن تقرأ ، وفى الصفحة السابعة وجدت أكثر بكثير مما توقعت .. ودخل ديوان القطار رجل جامد الوجه يلبس نظارة وبالطو أسود فوق جلباب أبيض تتبعه امرأة مترهلة . وحدج الرجل سامية بنظرة فاحصة من تحت نظارته ، وأسقطت الصحيفة إلى جانبها : هل هو مخبر شرطة ؟ هل عرفها ؟ مستحيل أن ينهار كل شىء ، وبهذه السرعة وهذا التحديد ، لابد أنها تتوهم ، هيأت لها مخاوفها .

واستدار الرجل يتسلم الحقائب من الحمال بعد أن استقر رأيه على البقاء فى الديوان ويرصها على الرف وانطرحت المرأة المترهلة جالسة فى مواجهة سامية واللبانة تدور فى فمها . ولوت سامية طرف الصحيفة وهى فى مكانها إلى جانبها تعد الصفحات فى آلية وعندما وصلت إلى رقم سبعة فتحتها فتحة ضيقة خشية أن يطلع عليها أحد ويرى صورة محمد تجاور صورة رفيق . وانهارت كل حججى فماذا أنا فاعلة الآن ؟

ونفض الرجل يديه من التراب وجلس بعد أن انتهى من وضع الحقائب ، وتطلعت سامية إلى وجهه المتحجر كوجه تمثال وأرخت عينيها .. لم أر شيئا لا أعرف . لو نبهته ، سيقول زملاء محمد وهم يتجمعون فى الأركان القصية فى المصانع ، على المصاطب وفى أروقة الجامعات ، ويعارها سيرخون أجفانهم لأنها منهم وأضاعته .. لا أعرف صدقونى لا أعرف ، فى حضن أمى لم أر ولم أعرف ، فى عتمة البئر لا يعود بالإنسان حاجة لأن يرى ويعرف .

★★★

وفى المقعد المقابل بجوار النافذة رأت سامية سيدة ريفية تحمل طفلة نصف ميتة . لم تشعر بمقدمها ، لابد أنها تسللت إلى الديوان على أطراف

أصابعها . وتوقفت اللبانة فى فم السيدة المترهلة وقالت :
- حرام عليك ياختى ، رايحه فيه بالعيّلة دى ؟

وتمتمت سامية قائلة : رايحه تدفنها ، وأعادت السيدة الريفية ذراع طفلتها الذى انزلق ثقيلا فى حجرها ولم يبد عليها أنها سمعت وكررت سامية القول : رايحه تدفنها ، وباقٍ من الزمن عشر دقائق ، قال الرجل المتحجر الوجه دون أن يوجه الخطاب إلى أحد ولا دوام لا دوام لا وقت حتى للضياع ، وماذا أنا فاعلة والقرار قرار موت أو حياة ومحمد يقف عاريا ورفيق ، لا يملك لهما العون سواى ؟ وضحكة نسائية متقطعة من الديوان المجاور وصوت رجل يقول :
- أنا مش مسئول عن اللى حيحصل بعد كده .

وبقية الضحكة تضيع فى فورة مياه غازية والقرار قرار حياة أو موت وهى تستطيع أن تنبه محمد ورفيق إلى الخطر الذى يتهددهما وتعود لتستقل القطار التالى إلى البيت القديم .

وتأكد لسامية أنها لو ذهبت لن تعود ، لو دخلت هذا المكان مختارة ستبقى فيه إلى النهاية بصورة أو بأخرى ، يتغير المكان ولا يتغير ، نفس المكان ونفس الناس والأشياء نسبية ولا دوام . يتأتى على الإنسان أن يبدأ ويعود فيبدأ فى سلسلة من التجاوزات والنعيم الوجه الآخر للجحيم ، وعيون لا تغفل ولا تنام مغروسة فى ظهرها ، هل هى عيون أم فتحات برج لحمام ؟ وطرقة على الباب ويدها ترتجف على مزلاج الباب الخارجى وكم من المخاوف حقيقى وكم منها متوهم ؟ وعينا صاحب البيت تلتمعان كالخرز يصيح على عتبة الباب مين ؟ وأنا العروس ومحمد يكتم ضحكة ورفيق يقدم له زاهية وهيا بنا نلعب . كيف غاب عنها العنصر الكوميدى فى موقفها هى بالذات وفى الموقف بأكمله ؟ لو تعلمت كيف تضحك لربما استطاعت أن تتجاوز كل شىء وضحكة نسائية فى ديوان القطار المجاور وجسمها بلا رغبة يتلوى وشفتاها بلا فرح تستدير ، أكانت لحظة هزيمة أم انتصار ؟ وصاحب البيت جسده مشدود وجهه يغيب فى الغضون والأشياء نسبية

وكل شىء جائز فى دنيانا هذه ووارد ولا غريب إلا الشيطان وهى تجرى من زقاق مسدود إلى زقاق ، تصل دون أن تعى أنها وصلت إلى الشارع الرئيسى .

وقفزت سامية إلى رصيف المحطة فى اللحظة الأخيرة قبل أن يتحرك القطار .

الفصل الثالث عشر

عوّلت سامية على اللجوء لزملاء محمد بعد أن تخرج به هو ورفيق سالمين من هذا المكان ، وشعرت بالامتنان لوجود ملجأ تلجأ إليه عند الحاجة وبالأمل فى بداية جديدة فى ظل هذا الملجأ . لا أقف أبدا وظهرى مكشوف ، يقول محمد ، الناس تحمينى ، والدنيا لاتبتدىء بصاحب البيت ولا تنتهى وفى ظل الدنيا الفسيحة فحسب تبدأ الأشياء وتنمو ، تنكسر العزلة وتكتسب الأشياء نسبها الصحيحة . الخوف وارد فى الدنيا الفسيحة على ألا يلتهم الدنيا الفسيحة ، وكذلك خيبة الأمل وانعدام الديمومة وقصور الواقع عن المثالى والمرتجى وحتمية البدايات من جديد . هل آن لها أخيرا أن تقف على قدميها وأن تكون ؟

وخطت سامية فى هدوء من السيارة التاكسى إلى ناصية الشارع الرئيسى وقد خططت مقدما لما هى مقبلة عليه آخذة فى الاعتبار أن يكون صاحب البيت قد اطلع على الجرائد الصباحية واحتمال ألا يكون ، واحتمال أن تخرج بمحمد ورفيق من المكان فى هدوء ، واحتمال ان تضطر لاستخدام القوة مع صاحب البيت . ولن يوقفها إلا احتمال واحد لا تملك له ردا ، احتمال أن يكون رجال الشرطة قد ألقوا بالفعل القبض على محمد ورفيق . واستبعدت سامية هذا الاحتمال الأخير وكل شىء يبدو هادئا فى الزقاق يتوسطه الباب الحديدى الكبير مغطى بالصفيح .. ما من تجمعات تتبادل التعليق وما من حراسة ، لا شىء على الإطلاق . وتأكد لسامية وهى تدفع الباب فلا يستجيب لدفعتها أن صاحب البيت فى الداخل ، وأنها وصلت فى الوقت المناسب قبل أن يتسع له الوقت لإبلاغ الشرطة بوجود محمد ورفيق .

وطرقت سامية الباب ، وأطلقت الأنفاس التى كتمتها دفعة واحدة حين جاءها صوت صاحب البيت :

ـ مين ؟

وواصلت سامية طرق الباب دون أن تتلقى إجابة وتسارعت طرقاتها وهى تدرك أنها شرقى للقاء صاحب البيت وجها لوجه وعلى حدة ، ليتحدد أخيرا كل شيء . أى شيء ؟ لا تدرى ولكنها على ثقة أنها عاشت العمر كله فى انتظار لحظة اللقاء ، واستعصى المزلاج لوهلة على صاحب البيت ، ومالت سامية على الباب وجسدها يرتجف صغيرة ، بالرغبة فى أن تقف على الحافة الضيقة التى لا تتسع لقدم إنسان ، تشرف من الدور الرابع على حوش المدرسة الداخلى .

وانزلقت سامية بين ضلفتى الباب قبل أن يغلقه صاحب البيت فى وجهها تخنق صرخة قبل ان تولد ، وضلفة الباب تتأرجح بين ثقل صاحب البيت الذى أدركت دائما مداه ، وثقلها هى التى لم تدرك مداه حتى لحظة أن اضطرت إلى أن تدفع عن نفسها الموت بين ضلفتى باب .

وانفلتت سامية إلى داخل المكان وصاحب البيت يترنح تحت وطأة دفعتها للباب والجريدة تسقط من يده ورشاش من طين يصيب صورة محمد وإلى جانبها صورة رفيق ، وهمت أن تناديهما واسترد صاحب البيت توازنه وغاب محمد عن إدراك سامية ورفيق ولم تعد تدرك سوى وجود صاحب البيت ووجودها ملحا شاملا مانعا لاغيا ما عداه .. ألهذا عادت ؟.

وأدركت سامية أن الوقت لم يفت بعد ، ومالت تقفل المزلاج الداخلى بنصف عين على صاحب البيت ، ورأت نفسها تتقدم تجاهه مسيّرة بقوى لا تملك لها دفعا . وحاولت سامية أن توقف المجنونة ولم تستطع . تقدمت المجنونة من صاحب البيت ، عيناها فى عينيه ومن عينيه يطل رعب حيوانى مجنون من مخاوف بلا ملامح ولا قوام ، تقدمت منه المجنونة ومن عينيه تطل الأشباح والعفاريت وأمنا الغولة والملاكان على اليمين واليسار يحسبان السيئات وتلويحة أمها بألا فائدة ، والخطأ والعقاب والنار ونظرة

أبيها ميتا والتجاهل والاستجداء والعدم ونظرة تحيى ونظرة تميت والاتهام والأحكام الجائرة وإشاعات وهمسات لا تبين وطرقات على الباب ونور بطارية مسلط على عينيها وخطوات تدب وكأن صاحبها يملك الأرض وما عليها ، تقدمت المجنونة من صاحب البيت وكأن شيطانا ركبها ، وحين حاذته أدركت أن عليها أن تقتله أو تموت .

وبدا لسامية أن من الضرورى أن توقف هذه المجنونة التى انفصلت عنها عند حدها قبل ان يفلت الزمام وأن تنجز المهمة التى جاءت أصلا من أجلها ، وهمت أن تستنجد بمحمد ورفيق واستدارت على فم صاحب البيت صرخة لم تنطلق ، كتمت الأخرى أنفاسه وفى حركة سريعة خاطفة انقضت عليه وغرزت أصابعها كالمخالب فى عنقه واستدار فم سامية ينادى محمد وأخرست الأخرى الصوت فى حلقها : ليس بعد لم تنجزى بعد المهمة التى جئت من أجلها . لقد أردت دائما ان تقتليه ، حتى قبل أن تتعرفى عليه أردت أن تقتليه ، هناك فى المدرسة على الحافة التى لا تتسع لقدم إنسان أردت أن تقتليه ، ليس بعد ، لم تنجزى المهمة التى جئت من أجلها ، ما من أحد عداك يملك أن يسوى ثأرك البايت مع صاحب البيت ، مامن أحد سواك .

وتغلب صاحب البيت على دهشته وبدأ يتخلص من قبضتى سامية التى اعتراها الشعور بالغثيان الذى يعتريها حين تضطر مكرهة على مواجهة لون من ألوان العنف أو القبح . وانقض صاحب البيت يقضم بأسنانه كفيها المطبقتين على رقبته ولم تتوقف الأخرى لتتوجع ، أنشبت مخالبها فى عنقه .. وكأنهم على مر العمر لم يقلموا أظافرها ، لم يكسروا رمح المقاتل فى أعماقها وكأنهم لم يحوّلوها على مر العمر إلى دمية يجرح النسيم خديها !

وفى حركة مفاجئة مال صاحب البيت بساقه اليمنى إلى الخلف وبمقدمة حذائه ركل سامية فى بطنها وسقطت فى الطين على ركبتيها وعيناها ترقبان حركته التالية ، وذهنها شعلة من النار تمر من الحمرة إلى الزرقة تتوهج لتصفو وعضلاتها تتصلب فى تحفز لترتخى خفيفة ، ونشوة تعربد فى

جسدها تصرخ : ياأبى ياأمى ياجدتى ، يامئذنة تشرف على بيتنا القديم ياكل الناس ، نعم أنا حية ، رغما عنكم حية .

وفى مكانه تسمر صاحب البيت وفى مكانها تسمرت سامية ترقبه .. نعم أنا هى ، هذه هى حقيقتى التى مسحتم عليها . العنف لا يخيفني ولا القبح ، العنف منى والقبح لأنى حية . لن آلف على عنقى بعد اليوم حبل الرقة ، حبل محو الكيان والاحترام ، حبل نظرة تحيى ونظرة تميت ، حبل الهروب والعدم ، حبل الموت ، لن أموت عطشى تحرجا من التزاحم على الماء . وتظاهرت سامية بأنها تهم بالوقوف على قدميها ورفع صاحب البيت ساقه ليركلها وتلقت ساقه بيدها وانطرح صاحب البيت على ظهره وانطرحت على بطنها إلى جانبه ويداها تلتفان حول رقبته . وقال صاحب البيت فى توجس :

ـ إنت حتعملى إيه ؟

وقالت سامية ببساطة وهى ترقبه :

ـ حاقتلك .

ودق صاحب البيت الأرض فى غضب طفولى وهو يقول :

ـ أنا ما بلغتش البوليس ، ما عملتش حاجة ، مالحقتش .

وعيناه تتحولان إلى خرزتين يبللهما الماء . وتساءلت سامية إن كان الغموض الذى يحيط بصاحب البيت وهم من صنع خيالها حتى قال :

ـ الباب بيخبط .

وأصاخت سامية السمع وما فى طرقات على الباب واستقر فى وعيها إدراك أن ما من أحد عدا صاحب البيت يملك الآن أن يكشف أمرهم ، ونغزته فى وسطه وهى تقول :

ـ مش علىّ ياواد إنت ، إلعب غيرها .

وضحكت حتى انفرطت الدموع من عينيها وعاد صاحب البيت يقول :

ـ أهم جم ، حيحطوا الحديد فى إيديك .. الحبل فى رقبتك .

واشتدت قبضة سامية على رقبة صاحب البيت وقالت فى مرح طفولى

تدعوه إلى اللعب ، لعبتها هذه المرة :
ـ مش جايين .
ـ جايين .

وتبادلا الكلام كالكرة فيما بينهما وعاد صاحب البيت يقول :
ـ حيسجنوك .
ـ بعد ما اقتلك ما حدش يقدر يسجنى .

قالت سامية فى هدوء ونهائية وتساءلت هل تقتضى المهمة التى جاءت لتنجزها أن تقتله فعلا أم تقتله داخلها ؟ وخيل إليها أنها قتلته فعلا وتساءل صاحب البيت إن كانت مجنونة ، وهزت سامية كتفها وهى تبتسم ، ربما كانت مجنونة ، هكذا على كل حال سيتصور محمد ورفيق ولن يعرفا أبدا أن عودتها الحقة كانت رهينة بأن تقتله . ومالت سامية نحو صاحب البيت تسأله :
ـ إنت مين ؟

وراقب صاحب البيت سامية بعينين باردتين وهى تعاود السؤال :
ـ جاى منين ؟ عمرك كام سنة ؟

وطمس صاحب البيت عينى سامية بحفنة من التراب وتكوّمت على نفسها تمسح عن عينيها العمى ، وانهال يركلها ركلة بعد ركلة والعتمة تتحول إلى نور ، واستمرت سامية مكوّمة على الأرض بلا حراك متظاهرة بالموت بعد ان استردت بصيرتها إلى أن توقفت الركلات ، وما إن استدار صاحب البيت مندفعا إلى الباب الخارجى حتى قفزت خلفه تجذبه من ساقيه القصيرتين . واصطدم رأس الرجل العجوز بالباب الخارجى وهو ينطرح أرضا ، وتخلخل الهواء بأنة مكتومة وأدركت سامية والدم ينزف من جرح فى جبين الرجل العجوز أن كل شىء وارد فى دنيانا هذه وجائز .

وأوسدت سامية رأس الرجل العجوز فى حجرها وتبينت أن جرحه لا يزيد على خدش بسيط فى مقدمة رأسه ومدت يدا متثاقلة إلى رباط شعرها ومسحت بطرفه على الجرح . وأسدل الرجل العجوز جفنيه وسامية تلف

رباط الشعر حول ذقنه وتعقده فى مقدمة رأسه توقف نزيف الدم .

وكان الأمل فى بداية جديدة لم يزل قائما وأسراب الحمام الأبيض تتطاير من البرج الذى بدا من قبل رهيبا ، حين نادت سامية محمد ورفيق والرجل العجوز المنهك يتوسد حجرها ، والجريدة الصباحية ملقاة على الأرض تبين عن صورة محمد ورفيق .

تجربتى فى الكتابة

لطيفة الزيات

كانت الكتابة بالنسبة لي، علي تعدد مقاصدها، فعلا من أفعال الحرية، ووسيلة من وسائلي لإعادة صياغة ذاتي ومجتمعي، وإن تعددت في ظل الإطار ذاته أوجه الحرية التي مارستها في الكتابة .

وقد عنت كتاباتي السياسية، التي تم بعضها في إطار عملي بوصفي رئيسة للجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، طرحي لترددي وراء ظهري، واكتشافي علي الورق وفي مواجهة الذات لموقفي من الأحداث وتحديدا أدق وأعمق لهذا الموقف الذي اكتسب البلورة من خلال الكلمات. كما عنت هذه الكتابات السياسية إشهارا لموقف يتعارض والموقف السائد. وبمدي مايتطلبه هذا الموقف من تجاوز للمخاوف والنتائج التي قد تترتب عليه، بمدي ما أمارس حريتي ، وأنا إذ أحدد موقفي وأشهره المرة بعد المرة ، أتلقي التعريف، وتتبين ملامح هويتي، وأمارس الحرية وأنا أتصور وجودي يتجسد صلبا خارج حدود ذاتي الضيقة .

وفي كتاباتي النقدية يختلف الأمر فبحكم المنهج التحليلي الذي انفرد بي لفترة، ولم يعد. ألغي ذاتيتي وأخضع نفسي مكتملة لمنطق العمل الأدبي، أياً كان منطقه مخالفا لمنطقي ، وحين جمعت الى جانب تحليل النص مناهج أخرى في بحثي عن (صورة المرأة في القصص والروايات العربية) تحررت، وصوتي يظهر جنبا الى جنب مع صوت الآخر. ومنطقي جنبا إلى جنب مع منطقه .

وعلى كل، فعملي في مجال النقد الأدبي كان في كل الحالات حرية من

حيث هو توكيد لذاتي ولقدراتي، ومن حيث كان وصلا واتصالا بالآخر والآخرين، ومن حيث حاولت أن أوصل متعتي بالعمل الفني إلى الآخرين. وتبقى متعة الوصل والاتصال متعة لازمة لمارسة حريتي في كل ماأكتب، وإن اختلف هدف ما أكتب، وأكون حرة فحسب حين أصل وأتصل، وترتبط المتعة ذاتها بعملية التدريس التي مازلت أقوم بها.

وتبقى الحرية المصاحبة لعملية الإبداع حرية فريدة. وفي كل عمل إبداعي صدر عني كنت أعيش بوعي حريتي وأنا أكتبه، وأبلور بلا وعي مفهومي للحرية في طيات هذا العمل.

وفي **الباب المفتوح** ١٩٦٠ (طبعة ثانية، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩) يرتبط مسار الفرد بمسار الوطن ارتباطا عضويا ويندرج الاثنان في كل مقبول ومفهوم في خط صاعد من البداية الى النهاية رغم كل المنحنيات، وفي تطور اجتماعي تاريخي سواء على مستوى الوطن أو مستوى الفرد.

وتطرح **الباب المفتوح** العلاقة الجدلية بين حرية الفرد من ناحية وحرية مجتمعه من الناحية الأخرى والشروط الضرورية لتحقق الحرية على المستويين. وتذهب الرواية إلى أن الفرد لايجد نفسه حقا ، ولايجد حريته بالتالي، إلا إذا فقدها بداية في كل أكبر وأهم منه ، وهو، في الإطار الروائي، النضال من أجل تحرر الوطن من بقايا الاستعمار، والفرد في هذه الرواية في تصالح نسبي مع مجتمعه، وحريته تتمشى مع حرية وطنه ولا تتعارض مع هذه الحرية .

وفي مجموعة **الشيخوخة وقصص أخرى** (المستقبل العربي ١٩٨٦) تعرض قصص المجموعة لصراع الذات ضد الذات بغية التوصل لتحقيق الحرية، وصراع الوعي الحق ضد الزائف، وصراع المكتسب في حرية ضد الموروث عن طريق التربية. وتصبح جبهة القيم والسلوكيات هي الجبهة التي يرصدها العمل القصصي. وتُصور معركة الإنسان من أجل الحرية في هذه المجموعة بوصفها معركة تستطيل ما استطال عمر الإنسان، وهو يسقط عنه المزيد من حبائل التربية والترويض، ويتجاوز دائما وأبدا المزيد مما قدر له

طبقيا ومجتمعيا إلى ما يقدره هو لذاته، والحرية الفردية فى المجموعة لا تكون أبدا حرية مبذولة ولا حرية نهائية .

وفى الرواية القصيرة **الرجل الذى عرف تهمته** (١٩٩١) (تصدر عن دار شرقيات للنشر فى أكتوبر ١٩٩٤– وقصص أخرى)، يقف الفرد العادى الممثل لملايين الناس عاريا إزاء واقع اجتماعى قامع، يصادر حرية الفرد بالتوقيف فى السجن . وبالتصنت والتجسس على بيته بالصوت والصورة، وبتزوير شرائط التسجيل عن طريق المونتاج تزويرا يؤدى إلى الإدانة . وتثير هذه الرواية القصيرة سؤالا كبيرا يمتد ما امتدت. هل يتأتى للفرد، أى فرد، أن يتمتع بحرية ما حتى أدناها فى ظل واقع بوليسى قاهر تتعدد وسائل قمعه وآلياته القاهرة المحسوسة وغير المحسوسة ؟ وإلى أى مدى يُسأل الإنسان العادى بسلبيته وانطوائه على ذاته عن هذا الوضع المتفاقم الذى يطول الكل فى الواقع لا مجرد مجموعة من المشتغلين بالسياسة .

وقد أخضعت رجلا عاديا ، ليس له فى العير ولا النفير كما يقال لجانب من تجربتى فى السجن بعد حملة ١٩٨١، وكان اكتشاف عملية التسجيل التى فرضت على بيت أخى محمد عبدالسلام الزيات وبيتى ، واكتشاف عملية تزوير شرائط التسجيل بهدف جمع أدلة إدانة ، بالضرورة اكتشافا مؤلما، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد ، ولكن يتبقى فى كل تجربة، أياً كانت درجة إيلامها، عنصر كوميدى يدعو إلى الفكاهة والسخرية، وهذا هو العنصر الذى استخدمته فى كتابة **الرجل الذى عرف تهمته** فى محاولة لانتزاع الضحكات من موقف فاجع ، ولإمكانية التعامل مع واقع قاهر وقامع .

وفى وجه أوضاع قاهرة لا تؤذن بالتغير ، لم أعد أملك سوى النقد المر الساخر والضاحك أحيانا ، ووجدت نفسى أكتب كما لم أكتب من قبل رواية يمكن أن تدرج فى إطار الأمثولة (Parable) أو فى إطار الهجاء الاجتماعى (Satire) . وحين استطعت أن أعلو على تجربتى وأن أرقبها من الخارج وأنا أضحك وأُضحك الآخرين منها، امتلكت بسخريتى هذه حريتى.

وتنشغل **حملة تفتيش : أوراق شخصية** (دار الهلال ١٩٩٣) وهى لون غير تقليدى وأشبه بالروائى من السيرة الذاتية بقضية الحرية فى أكثر من اتجاه ، وتجمع فى معظمها بين محورين أساسيين يتناولان علاقة الذات بالذات وبالآخر من ناحية، وعلاقة الذاتى بالموضوعى أى الواقع القاهر من ناحية أخرى ، فى ظل سعى إلى الحرية يصيب أحيانا ، ويخيب أحيانا أخرى ، نتيجة لمجموعة القيم والسلوكيات الزائفة التى نرزح تحت وطأتها ونتيجة لقصورات فى شخصية يتناوبها الإقدام والإحجام، الجرأة والخوف، اختيار الأصعب والاستسلام إلى الأسهل، الحقائق والأوهام عن الذات والآخرين .

وتعرض مسرحية **بيع وشرا** (الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤) لمشكلة حرية الفرد من زاوية شديدة الأهمية، فالحرية ليست رهينة بطبيعة النظام الاجتماعى أو العامل الموضوعى فحسب ، بل هى أيضا رهينة بالفرد وبمدى القيم الاجتماعية التى تتحكم فيه، والنوازع التى تتسلط عليه. والإنسان يفقد حريته تماما إذا ما خضع لرغبة تسيطر عليه وتحيله إلى عبد والنزوع إلى التملك والمال والقوة التى تصاحب المال، والرغبة المجنونة فى الاقتناء تحيل بعض شخوص مسرحية بيع وشراء إلى مجرد آلات مسلوبة الإرادة معدومة الحرية، وإلى عبيد لا تبقى ولا تذر، تضحى حتى بحياة الآخر على مذبح التملك ومزيد من التملك، ومثلما تعرض **بيع وشرا** لغريزة تملك المال تعرض لغريزة تملك البشر، تلك الغريزة التى تحيل الناس، المالك منهم والمملوك ، إلى عبيد.

وتعرض الرواية الحالية **صاحب البيت** ، لألوان عدة من ألوان القهر المحسوسة وغير المحسوسة، التى تنزل بالإنسان وخاصة إن كان إنثى نتيجة لنشأته ونوع التربية التى يتلقاها فى هذه النشأة، والترويض الذى ينزل به حتى يتواءم مع مجتمع قاهر يرفض الاختلاف ويتطلب التواؤم ويصر على تحويل الناس إلى قطيع من الماشية تقاد فتنقاد . كما تعرض

صاحب البيت للتفرقة ما بين الحب والرغبة في التملك، وترصد العلاقة بين الجنسين القائمة على الضياع في الآخر أو الاستحواذ على الآخر كلون من ألوان العبودية وفقد الندية والفردية .

وفي **حملة تفتيش : أوراق شخصية** ، أقول وأنا في الثامنة والخمسين ، وأنا في طريقي إلى السجن:ألمح حريتي مكتملة في آخر الطريق وتصالحي مع الذات بعد مشوار طويل. ولم تكن هذه الحرية بالحرية المبذولة ولا بالحرية النهائية. يتأتى عليّ الآن وقد طعنت في السن ، أن أعاود بالفعل الحر والهادف توكيد حريتي المرة بعد المرة ، بفعل حر بعد فعل ، سواء تمثل هذا الفعل في موقف أو كلمة .

وأفقد حريتي في كل مرة أقول فيها لنفسي ، طال المسار وآن لي أن أستكين .

★★★

من الباب المفتوح ١٩٦٠ إلى الشيخوخة وقصص أخرى ١٩٨٦،
تغيرت أنا والعالم من حولي يتغير ، كزلزال لا يتوقف إلا حينا قصيرا ليبدأ في التغيّر من جديد.

وفي منتصف الثمانينات، وأنا أكتب الشيخوخة وقصص أخرى (١٩٨٦) كنت كمن يقفز إلى البحر معصوب العينين . وتأتى أن تكون الدائرة التي أتوجه إليها بالخطاب الروائي دائرة أضيق نتيجة للتعددية في القيم، والتعددية في الوجدان، وتأتى أن أعزف، دون أن أعرف مسبقا، نوعية النغمة التي يستجيب لها المتلقي .

وفي ظل المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي بدأت سنة ١٩٦٧ وتستمر إلى اليوم ، تعقدت رؤية الحقيقة ، وبدت سبل الخلاص مسدودة إلى حد الاختناق، وضعف العامل المشترك في القيم فتعددت سلالم القيم من شريحة إلى شريحة من شرائح المجتمع، وضاعت لغة الوجدان المشترك والناس ينقسمون على أنفسهم في جزر منعزلة تفتقر إلى الحد الأدنى من الوحدة الوطنية والشعور بالانتماء .

وتأتى وقد تعقدت رؤيتى للحقيقة وتعقد الواقع الاجتماعى من حولى أن يختلف أسلوب **الباب المفتوح** عن أسلوب **الشيخوخة وقصص أخرى**، وأن أبدأ بداية من الأخيرة فى طرق باب التجريب لأجد أشكالا جديدة تمسك بالواقع الجديد.

★★★

بنيت **الباب المفتوح** بنيانا معماريا عضويا ضخما، يتطور فى طبيعية وفقا لقانون الضرورة من خلال الصراع وانفراج الصراع ، ويبدأ وينتهى بنقطة ذات دلالة ، ونقطة النهاية فى الرواية تسلم القارئ إلى بداية جديدة وإلى امتداد فى عمق الزمن وفى عمق التاريخ .

ورغم أنى قد وقفت على يسار النظام قبل ثورة يوليو وبعدها، واعترضت على الكثير وناوأت الكثير ، فإن الواقع فى مجموعه قد بدا لى – رغم كل الأخطاء والقصورات ، منظما ، ومفهوما ، ومنطقيا ومبررا. وكنت أتمتع بهذه النظرة المستقبلية التى ترى التاريخ فى حركته وتملك تجاوز اللحظة الحاضرة ورؤية أسباب الخلاص ووسائله فى المستقبل .

ومع **مجموعة الشيخوخة وقصص أخرى** (١٩٨٦) استحال علىَّ هذا الجسد العضوى الذى يشق طريقه فى يسر وحتمية من بداية إلى وسط إلى نهاية ، رغم حنينى الدائب له وللرؤية الكلية للحقيقة التى ترتبط به . مع الشيخوخة لم تعد الأسئلة تلقى إجاباتها، ولم تعد البصيرة قادرة على تجاوز حلكة الحاضر، وتأتى استخدام تقنيات جديدة للتعبير عن الرؤية الجديدة .

ومزجت بين الأسلوب التسجيلى (فى هيئة يوميات أو مذكرات) وبين الحكى (فى هيئة قصة أو عمل إبداعى) وتداخلت الأزمنة والأمكنة ، وتعددت أوجه الحقيقة بدلا من أن تتدرج فى وجه واحد موضوعى، واحتبس الصوت بالحجة ونقيضها وأصبح التطلع إلى التجاوز هو الهدف الأسمى : تجاوز اللحظة الآنية إلى ما بعدها ، والاستمرار – رغم كل شىء وفى وجه كل شىء – وجاء الاسلوب مثقلا بأكثر من مستوى من مستويات المعنى .

وفى **حملة تفتيش: أوراق شخصية** ١٩٩٣ لم يواتنى الشكل العضوى وأنا أنسج من صراع رئيسى قصة حياتى ، تداخلت الأزمنة وتضاربت وتداخلت الأنواع الأدبية وتضاربت ، وتعددت الصور للحقيقة الواحدة ، لا تلغى الواحدة منها صلاحية الآخرى .

ولكتاب **حملة تفتيش ، أوراق شخصية** حكاية أود أن أرويها . فى فترة احتجازى بسجن القناطر ١٩٨١، وإثر حملة تفتيش فى العنبر الذى أقيم فيه، كتبت قصة قصيرة بعنوان «حملة تفتيش» ، وهى القصة التى ترد فى نهاية الكتاب، وكخاتمة له، ويستمد منها الكتاب، عنوانه الرئيسى .

وفى هذه القصة تجرى عملية التفتيش على مستويين ، مستوى مادى يشير إلى حملة تفتيش واقعية تجريها إدارة السجن، ومستوى معنوى يشير إلى غوص الراوية فى أعماق ماضيها واستدعاء فترات متباينة من فترات عمرها بدت عند بداية الحدث جزرا منعزلة بعضها عن البعض ومتضاربة بعضها والبعض . والحدث الخارجى أى حملة التفتيش المادية هو بالطبع الذى يستدعى الحدث الداخلي ، والتفاعل فيما بينهما تفاعل دائب.

ومن خلال التفاعل بين المستويين المادى والمعنوى لحملة التفتيش المزدوجة البعد، تتصالح فترات العمر التى تبدو فى البداية متضاربة ومتناقضة، وتنتظم وهى تندرج فى كل مقبول ومفهوم يجعل الراوية تشعر بعد نهاية الحدث بنوع من التحقق والتكامل. وتختم الراوية قصة حملة تفتيش قائلة: استطيع الآن أن أنظم أوراقى التى رقدت مخلوطة فى مخابئها السرية. وتكون أوراق العمر قد انتظمت فعلا. والخاتمة بالطبع تستمد أهميتها فى القصة القصيرة من حيث إنها تلقى الضوء على الحدث القصصى مكتملا الخارجى منه والداخلى على السواء ، واستخدام الفعل الماضى فى كلمة رقدت يشير إلى متغيرات حدثت ما بين البداية والنهاية ، متغيرات أدت إلى انتظام أوراق العمر بعد انقسام، ففى بداية قصة «حملة تفتيش» تشير الراوية إلى عجزها عن تنظيم أوراقها التي ترقد مخلوطة فى مخابئها السرية، ولكن شيئا ما فى التجربة النفسية التى تمر بها الراوية اثناء حملة التفتيش

المادية قد أحدث تغيرا أكسب الراوية القدرة التى انعدمت فى بداية الحدث القصصى على تنظيم أوراقها التى تخرج إبان الحدث من إطار السرية إلى إطار العلنية ولا تبقى كما كانت مخلوطة فى مخابئها السرية، بل تندرج كما لم تندرج من قبل فى كل مفهوم ومقبول .

ونحن نجد أنفسنا فى هذه القصة إزاء صراع على أكثر من مستوى يتأزم ويلاقى فى النهاية الحل ، وأوراق تنتظم بعد حالة من عدم الإنتظام ، والأوراق تكتسب فى القصة صفة الرمزية لا كمجرد أوراق شخصية بل كمراحل من العمر تتلاقى وتندرج أخيرا فى كل مفهوم وتشكل قصة «حملة تفتيش» أهمية خاصة - بالنسبة لى من حيث تمسك بصراع رئيسى فى حياتى وتسجل إنفراج هذا الصراع إنفراجا يدعو إلى التصالح مع الذات .

وبعد خروجى من السجن قرأت هذه القصة على كل من الدكتورة رضوى عاشور وأمينة رشيد، وكان رد الفعل مشجعا، وأضافت رضوى قائلة: إما أن تستكملي القصة وإما أن تنشريها على ما هى عليه ، ولم يمر على قول رضوى العابر مرورا عابرا ؛ من حيث مس شعورا كنت اشعره فعلا. وتركت القصة لسنوات دون أن أنشرها بعد أن استقر فى اعتقادى تدريجيا أنها تطالب بالاستكمال من حيث هى أقرب ما تكون إلى نهاية عمل دون الخلفية والتبرير الذى يجعل إشاراتها إشارات دالة، والقصة تنطوى علي صراع عمرى الرئيسى الذى تندرج فى إطاره الأحداث الرئيسية فى حياتى سواء الخاص منها أو العام، كما تنطوى القصة على حل لهذا الصراع الرئيسى الذى اقتضانى على مستوى الحياة قدرة هائلة على مواجهة الذات بكل سلبياتها ونواقصها، وقدرة هائلة على التجاوز والاستمرار من خلال هذه المواجهة .

وفى حديث لاحق مع أمينة رشيد قلت أنى كتبت عدة كتابات ذاتية فى أكثر من مناسبة وفى أكثر من إتجاه على فترات زمانية متباعدة ، واقترحت علىّ أمينة المزج بين هذه الكتابات . وبدالى اقتراح أمينة رائعا ومثيرا وإن كان صعبا إن لم يكن مستحيل التنفيذ . ولكن الاقتراح بقى راسخا فى

إعماقى معلقا على إمكانية توافر وحدة فى المادة المكتوبة فى أوراقى الشخصية وإمكانية أندراجها فى شكل فنى يقول أكثر مما تقوله جماع الأحداث والكلمات ، إذ أن حسى بالشكل الفنى للكتابة حس يبلغ درجة الهوّس ، هذا رغم إدراكى أن نشر مادة ذاتية مالا يتطلب وحدة فى هذه المادة ولا مسرحة للحدث ، ورغم إدراكى إنى أستطيع أن أردت أن أنشر أوراقى الخاصة على ماهى عليه بترتيب زمانى ، وكان هذا إقتناعا عقليا ، غير أن ميلى الفنى كان يعمل فى إتجاه مغاير ، إتجاه يسعى إلى تحقيق شروط الرواية فى عمل ذاتى ، حدث موّحد ذى دلالة ينطوى على صراع رئيسى يتأزم وينفرج أخيرا كما إنفراج فى قصة «حملة تفتيش» .

ولاحظت وأنا أعاود قراءة بعض أوراقى الشخصية أن عملية الكتابة فيها تنطوى على وحدة فنية تتجاوز بكثير وحدة الشخصية، وأنها فى معظمها تنطوى على نفس النمط الاسلوبى الذى تنطوى عليه قصة «حملة تفتيش» ، أى نمط ربط الخاص بالعام وتفاعلهما معا ، ونمط التسلل من الحدث الخارجى إلى الحدث الداخلى، من الظاهر إلى الباطن فى حملة تفتيش دائبة ومضنية للذات بغية تجاوز قصورات هذه الذات والتصالح مع حقيقتها . ورغم تنوع هذه الأوراق الشخصية واختلاف المناسبات التى كتبت فيها والأهداف التى استهدفتها لاحظت ثانيا انها تندرج فى معظمها بطريق مباشر أو غير مباشر فى إطار صراع رئيسى فى حياتى كنت واعية به وأنا أكتبها ، وأن هذا الصراع الرئيسى هو ذات الصراع الذى يلقى الحل فى قصة «حملة تفتيش» . ويتراوح هذا الصراع بين الاقدام على الحياة والعكوف عنها ، بين الانبساط إلى الخارج واحتضان الحياة وبين الانطواء والتمحور على الذات، بين الإقبال والإحجام، بين الاختيارات الشخصية الحرة، واللواذ بالتواؤم مع الآخرين .

وانفرج الوضع مع خروجى بهذه الملاحظات ، كانت شروط الرواية تتوافر بلا وعى فى بعض الأوراق من وحدة فنية للحدث إلى صراع رئيسى يتأزم وينطوى على الانفراج . ولم يتبق سوى اكتمال خط التطور الرئيسى بإضافة

الجديد الذى لم يدرج من قبل ، وإعادة ترتيب الاوراق فى شكل فنى دال يقول أكثر مما تقوله جماع تفصيلاته، واستكمال عملية الكتابة والتعديل هنا وهناك ، ونقل ما هو على مستوى اللاوعى بالشكل الفنى الكامن إلى مستوي الوعى ، وكان .

وقد ألزمت نفسى والتزمت بشكل أقرب ما يكون إلى شكل الرواية وبصراع رئيسى ينفرج بعد سلسلة من التعقيدات وبالعوامل المبررة والمحركة لهذا الصراع فى أوضاع العمر المختلفة على السواء ومنها وضع النشأة . وشكل هذا الالتزام عنصر الاختيار فيما ضمنت وفيما لم أضمن ، واستبعدت من الكتاب كل ما ليس له علاقة بمفردات هذا الصراع ومبرراته ، وضمنت ما ضمنت بقدر ما اندرج فى هذا الصراع وأدى إلى تأزمه أو انفراجه ويصح هذا على فترة النشأة بمثل ما يصح على بقية فترات العمر.

وحررنى هذا الالتزام بالشكل الروائى من الكثير من متطلبات السيرة الذاتية التقليدية من موضوعية ومن حفاظ على نسب الأشياء ومن ايراد للتافه والجليل ، ومن رسم للشخصيات رسما موضوعيا فى استقلال عن الرؤية الذاتية للراوية ، ومن مساحة بوح تتسع لمختلف التفاصيل التى قد تهم القارىء وقد لا تهمه .

ومع الشكل الروائى تمتعت بحرية أن أضمن وألا اضمن ، ولم أكن فى موضع الرصد لتفاصيل حياتى ، بل فى موضع اختيار، لما هو دال فى الإطار العام ومحمل بالمعنى ، ولم أكن فى موضع تغطية لأحداث حياتى ، بل فى موضع بلورة رؤيتى للمسار العام لهذه الحياة ، ولم أكن فى موضع تسجيل ، بل فى موضع البحث عن أرضية مشتركة مع القارىء وفى موضع التغنى بالمعاناة الإنسانية والمشتركة والتجاوز الإنسانى المشترك .

لقد تغير كل شىء ، وبقيت الرغبة فى بلورة رؤيتى للواقع ، وبقيت الرغبة التى لا تقل إلحاحا، فى اشراك القارىء فى هذه الرؤية وإقناعه بصلاحيتها ومحاولة التأثير فيه لكى يتبناها ، فإن فعل تحقق هدفى من الكتابة ،

وسقطت وحدتي ، أو ما أتوهم أنه اختلافى وتفردى، فأنتمى من جديد ، وأشبع هذه الرغبة الملحة فى حياتى، الرغبة فى الانتماء بكليتى ، بسرى وعلنى ، بباطنى وظاهرى .

وكانت هذه هى الرغبة الأم التى حركتنى دائما وأبدا ، ولم تكن التقنيات، فى أى فترة من فترات إبداعى ، مرتبطة بتجريب من أجل التجريب ، وإنما كانت التقنيات مهمة وحاسمة من حيث نجاحها أو إخفاقها فى إيصال رؤيتي للآخرين ، وفي الوصل ما بينى وبين الآخرين .

روايات الهلال تقدم

ألعاب العلماء

تأليف

بيير بول

(مؤلف رواية كوكب القرود)

ترجمة

محمد عبدالمنعم جلال

تصدر: **١٥ نوفمبر** ١٩٩٤

رقم الايداع : ١٩٩٤/٨٠١٧
I. S. B. N
977 - 07 - 0355 - 9





نبع الآداب والثقافة المعاصرة

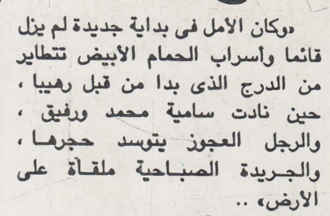
من : أدب . وقصة ورواية . ودراسة . وسير . وبحوث . وفكر . ونقد . وشعر . وبلاغة . وعلوم . وتراث . ولغات . وقضايا . وتاريخ . واجتماع . وعلم نفس . ورحلات . وسياسة إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

١- الإنسان الباهت .
٢- الإنسان المتعدد .
٣- انقراض الرجل .
٤- الحياة مرة أخرى .
٥- نوم العازب .
٦- الإعلام والمخدرات .
٧- من شرفات التاريخ جـ ١ .
٨- فكر وفن وذكريات .
٩- أم كلثوم .
١٠- المرأة العاملة .
١١- ساعة الحظ .
١٢- من شرفات التاريخ جـ ٢ .
١٣- الملامح الخفية (جبران ومي) .
١٤- شعرة معاوية . وملك بني أمية .
١٥- عبد الحليم حافظ .
١٦- محمد عبد الوهاب .



هذه الرواية



«وكان الأمل فى بداية جديدة لم يزل قائما وأسراب الحمام الأبيض تتطاير من الدرج الذى بدا من قبل رهيبا ، حين نادت سامية محمد ورفيق ، والرجل العجوز يتوسد حجرها ، والجريدة الصباحية ملقاة على الأرض» ..

• • •

هذه رواية تحاول رصد رحلة حياة ، وهى رصد لقهر القهر ومواصلة الرحلة ، ولعل الكاتبة قد نجحت فى ذلك كما لم تنجح كاتبة أخرى فى إسترجاع رحلتها .

وعالم الرواية الذى تعمدت لطيفة الزيات أن تجعله صغيرا ومحاصرا ومخنوقا بصورة كاريكاتورية يبدو مبالغا فيه ، فهو موجود فى الرواية بمدى ماهو تكثيف وتشويق لألوان القهر التى تنزل بالإنسان من المهد إلى اللحد ، على المستويين الخاص والعام ونحن نجد انفسنا أمام شخصية تتعثر فى الطريق ، وتفقد عند كل منعطف أملا وحلما ، وربما وهما ، تت... قهر الذات بمدى ماتتعرف ... الآخر ، تلغى ذاتها فى الآخر ... إلغاء الذات حبا ، تتمسك بم... تتحملها نسبية المكان والز... الحياة .

انها رواية تحاول اعلا... الحياة . ويبقى القارىء هو ... الفيصل فى استيعابها .



لطيفة الزيات

- من مواليد دمياط عام ١٩٢٣
- تشغل حاليا وظيفة استاذ متفرغ بقسم اللغة الإنجليزية كلية البنات - جامعة عين شمس .
- صدرت لها رواية «الباب المفتوح» .. عام ١٩٦٠ ، و "الشيخوخة وقصص اخرى" عام ١٩٨٦ ، و «الرجل الذى عرف تهمته» (رواية قصيرة) ١٩٩١ . ثم «حملة تفتيش . اوراق شخصية» ١٩٩٢ ، و «بيع وشرا» ١٩٩٤ . (مسرحية) .
- من ابرز اعمالها النقدية : «صورة المراة فى الرواية والقصة العربية» ١٩٨٦ ، «نجيب محفوظ . الصورة والمثل» عام ١٩٨٩ .
- تصدره لها قريبا مجموعة مقالات نقدية تحت عنوان «اضواء» .

